الطريق إلى حكم إسلامي

1

المفهوم والتجربة

محمد علي ضناوي

دار الإيمان

سلسلة

الطريق إلى حكم إسلامي

الكتاب الأول

سلسلة

الطريق إلى حكم إسلامي

الكتاب الأول

المفهوم والتجربة

محمد علي ضناوي

دار الايمان

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

دار الايمان للطباعة والنشر والتوزيع - طرابلس - لبنان

هاتف : ٦٢٨٥٨٢ - ٦٢٩٢٨٨ - ص.ب ٥٧٨ - برقياً : رضاكو

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة

الطريق إلى حكم إسلامي

الكتاب الأول

المفهوم والتجربة

ويتضمن :

- هذه السلسلة
- بين يدي الكتاب
- غاية الوجود الإنساني
- الحضارة والنظام
- مفهوم الدولة في الإسلام
- كيف أقام الإسلام دولته
- كيف دالت دولة الإسلام
- اعادة كتابة التاريخ الإسلامي .

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

وبعد . . .

فإذا نظرنا إلى مسلم اليوم ، رأينا كيف تتجاذبه التيارات الضخمة ، وكيف تعكس هذه . . . في أعماقه صراعاً داخلياً عميقاً .

فهو بفطرته يحن إلى إسلامه وماضيه ، وهو بواقعه يخضع لمؤثرات فكرية غربية أو شرقية ، ولمحاكات لعادات الغرب ومساويه .

مسلم اليوم بعُد عن ربّه فتلاشت دولته التي أرادها له الله . يعيش انتكاسة في روحه ووجوده مضطرباً تائهاً تتخطفه الفلسفات ، وتتجاذبه المذاهب ، مقطوع الصلة بماضيه ، ومبتور العلاقة بحضارته ، لا يعرف دوره في الحياة ، ولا يدرك غايته في الوجود ، لا دولة ترعاه ، ولا نظام يحفظه ، ومسلمٌ هذا شأنه كيف له أن ينتصر في معركة الحياة والوجود ؟؟ .

ويترتب على ما تقدم أن المسلم اليوم لا يملك إسلامه أولا يملكه إسلامه ، وإن مجتمع اليوم لا يجوز أن يُنعت بالإسلامية ، أو يتحمل أوزاره ومساوئه الإسلام الغريب . . .

وفي أعماق هذه المأساة يحاول دعاة الإسلام أن يعيشوا إسلامهم أولاً ، أن يعيشوه في أنفسهم وفي عائلاتهم وفي مراكز أعمالهم . ثم يحاولون ثانياً أن

يوجدوا وسطاً إسلامياً خاصاً بهم، يعيشون فيه مناخ الحياة الإسلامية، وجوّها العابق بالمحبة والمودة والأخلاق الكريمة ، ويحاولون ثالثاً تضخيم هذا الوسط لإيجاد تيار يقوى على مجابهة تيار اللاإسلامية ، وعلى إعادة الإسلامية السليمة إلى هذا المجتمع المنكود .

* * *

والحقيقة أن « الطريق » إلى حكم إسلامي ، في هذا الجو المشحون بالتناقضات ، أمر صعب ، تكتنفه كثير من المخاطر والأهوال .

بيد أنه لا مفرّ ولا مهرب منه إلاّ إليه . .

فالحكم الإسلامي حتمي ، والطريق إليه فريضة ، والتخلف عنه ردة ، وهو مآل الرجاء وغاية الاطمئنان .

ففي ظلال هذا الحكم يشعر المسلم بوجوده ، ويدرك أبعاد شرعه ، يعيش بها حياته الكريمة العزيزة . .

وعلى هذا لا بد من الخطو على أول الطريق . . السير الدائب الحثيث ، طرق أبواب السلطة . . إعلاء لا إلَه إلاّ الله ، نداء خفاقاً للإنسانية والحياة . .

وأول الطريق أن يقرر المسلم إنهاء أزمته في الوجود ، وإنهاء أزمته في الحضارة ، وذلك بتعرفه العميق على غاية وجوده ، وعلى دوره في الحياة ، وأنه خليفة في الأرض ، مستناب بأمر الله . . .

وثانياً : أن يتفهم معنى الحضارة ، ومغزى النظام ، ويدرك بعمق أن الإسلام يعني ممارسة الحضارة، وأن الإنسان ، الخليفة ، لا يصلح له نظام سوى الإسلام .

وبعد أن تتأكد هذه المعاني لا بد من التساؤل عن مفهوم الدولة

الصحيح ، حتى إذا ما أدركناه ، وعقدنا العزم على ترجمته إلى واقع حي ، كان لزاماً علينا أن نعي بإخلاص ، تجربة الماضي ، حين آبت مجتمعاته إلى فطرتها السوية ، فوافت ـ بذلك ـ مستوى الإسلام في منهجه وأسلوبه . . وكان علينا أيضاً ، أن نحلل بعمق ، تجربة أخرى حين أريد لهذا الواقع المسلم أن يتحلل من التزاماته ، وأن يتمرد على ذاته ، وأن ينقلب ضده .

أي لا بد من دراسة مفهوم الدولة السوي ، والكيفية التي أقام بها الإسلام دولته ، والكيفية التي دالت بها تلك الدولة الراشدة .

ثم علينا ـ ونحن في طريقنا إلى بناء حكم الإسلام من جديد ـ أن نصور واقعنا المظلم كما هو وكما أعده وأخرجه أعداء هذا الدين . . ننقله من مراجعه ومصادره دون أن نزيد أو ننقص ، لأن دراسة أرض المعركة بصدق من أهم العوامل التي تؤثر في مجريات الأحداث . . .

فأمامنا « هجوم ماكر » على الإسلام ، وأمامنا أيضاً ردة الفعل الطبيعية » حركة المجابهة لصد هذا الهجوم ، ولتخذيله ، وللانتصار عليه .

وبعد أن درسنا الماضي وتعرفنا على أبعاد الحاضر ، يجب طرح السؤال التالي « كيف نقيم حكم الإسلام من جديد ؟ » ووجب الاطلاع على مختلف أساليب العمل في إقامة الحكم .

وهذا كله شق في المسألة .

والشق الآخر يواجهنا بقوة إذا ما منّ الله علينا بحكم الإسلام من جديد .

. . . ما منهاج هذا الحكم ، أي ما هي مقوماته الأصيلة وخصائصه الذاتية ؟ ومن أين تستقى هذه المعالم الأساسية ، وكيف يمكن أن تتكيف هذه في كل واقع وفي كل مكان وزمان ؟ .

ثم كيف يمكن أن يتجمع المسلمون من جديد ، وكيف يكون الترابط فيما بينهم ، وعلى أي شكل من أشكال التجمع يلتفون أو يجب أن يلتفوا ؟

ثم كيف يحقق الإسلام دوره الفعال في مجموعة الأمم المتصارعة ليعيد الأمن والسلام لهذا الإنسان التائه في هذا العالم المضطرب ؟ .

ولا ريب أن هذه المحاولات محفوفة بالمخاطر والأشواك ، لذلك فهي بحاجة إلى مزيد من التخطيط ، وإلى روية في التفكير ، ودقة في التوجيه والتنفيذ .

وكأي محاولة ، لا بد لها : من « قاعدة » تنطلق منها ، و« طريق » تسعى إليه للوصول إلى « الهدف » المنشود .

وكل محاولة تفقد هذه العناصر الأساسية : القاعدة ، والطريق ، والغاية ، أو بعضها ، يكون مصيرها في الأعم الأغلب ، الفشل والإحباط ، وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح ، والعمق في أساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حي فعال .

* * *

وإن كان لي من حق التمني على القارىء الكريم ، فهو أن يقرأ الكتاب بالتتابع ، وأن لا يقفز عن آية أو حديث أو رأي أو خبر كان في علمه . . . فالكتاب فصول متصلة ، وحلقات مترابطة ، والقفز يسيء إلى المعنى ، ويفقد التكامل في البحث . . .

وأخيراً . . إن وُفقت فيما ذهب إليه فمن الله . . وإن أخطأت فمن نفسي . . وأحمد الله وأستغفره في الحالتين ، وأرجواه أن يتقبل مني عملي ، وأن يحقق أمنيتي ، وأن نرى حكم الإسلام في الوجود . . .

إنه طريق شائك وطويل .
لكن لا بد من سلوكه . . .
فهو المضمون . . .
ولا نصر لنا إلا به . . .

﴿ فستذكرونَ ما أقولُ لكمْ وأُفوِّضُ أمري إلى الله ﴾ .

طرابلس : رمضان ١٤٠٠ هـ
آب ١٩٨٠ م

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذه السّلسلة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونصلي ونسلم على رسوله الأمين بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونحن على ذلك من الشاهدين وبعد :

فقد كان أصل هذه السلسلة كتاباً من جزئين ، الجزء الأول : ما قد طبع تحت اسم هذه السلسلة (الطريق إلى حكم اسلامي) والجزء الثاني ما وعدنا به في مقدمة الكتاب ولم نتمكن من انجازه في حينه ، والمتعلق بالخطوط الكبرى والأركان الأساسية لحكم اسلامي وهو اليوم يشكل الكتاب الرابع من هذه السلسلة . . .

وقد نشأت ظروف عديدة حالت دون إعادة طبع الكتاب في قسمه الأول أهمها طبعه بصورة فعلية ـ وان كانت بغير ارادة المؤلف ـ من قبل بعض دور النشر ـ عن طريق التصوير (أو ما يسمى بسرقة الطباعة) ومنها ما يعود إلى الحرب اللبنانية وانشغالنا بها . . . ومنها ما يعود إلى أن بعض الكتابات قد فرضت نفسها عليّ فشغلت بها عن سواها [1] .

---

(١) صدر لي بعد الطريق الى حكم اسلامي كتابنا (الزواج الاسلامي أمام التحديات) و (المسلمون في لبنان) و (قصتي غار الاخلاص ونار وايمان) و (تفسير جزء عم) و (سجل التمارين القرآنية) ، و (مسرحية تحت الاسوار) و (مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية) الى جانب عدد من الكتابات حول الحرب اللبنانية أسبابها وآثارها وحول القيادة الحركية والدعوية ، آمل أن ترى النور في أقرب فرصة . . .

وخلال هذه العشر من السنين التي فصلت بين الطبعة الأولى واصدار هذه السلسلة (١٩٩٠ - ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م) نشأت احداث ضخام في العالمين العربي والاسلامي وجدّت ظروف واختلفت أمور وظهرت محاولات جدية لاقامة حكم اسلامي سواء في باكستان أو ايران . . . وتأثرت الحركات الاسلامية بكثير من القضايا والطوارىء فكان لا بد من لحظ هذه المتغيرات ومن مناقشة التجربة الاسلامية الجديدة واعادة تقويم الطرق والوسائل لاقامة الحكم الاسلامي المنشود .

وفي سنة **١٩٧٨** طبعت دار الجهاد ودار الاعتصام في القاهرة فصلين من كتابنا الطريق إلى حكم اسلامي هما الهجوم والمجابهة واصدرتهما في كتاب مستقل أسمتاه (كبرى الحركات الاسلامية) فاستحسنت الأسلوب : تقسيم فصول الكتاب إلى أجزاء ضمن سلسلة واحدة . . . فقد يكون ذلك أسهل على القرّاء وأنفع . . . خاصة وأني أضفت أموراً مهمة حول مستجدات تتعلق بمواضيع الكتاب كما رأيت نقل الفصل الأخير (كيف نقيم حكم الاسلام من جديد) ليكون موضوع كتاب مستقل في هذه السلسلة وهو (الكتاب الخامس) مع الأخذ بعين الاعتبار مناقشة الطرق والوسائل وتعميق الرؤيا في الحركات الاسلامية ودراسة التجربتين الايرانية والباكستانية وهكذا فقد غدت السلسلة على النحو التالي :

الكتاب الأول = المفهوم والتجربة :

ويتضمن النظرة الشاملة للوجود الانساني وغاياته - الحضارة والنظام - مفهوم الدولة في الاسلام - كيف أقام الاسلام دولته - وكيف دالت دولة الاسلام - واعادة كتابة التاريخ الاسلامي .

الكتاب الثاني = اللعبة والهجوم :

ويتضمن بحثاً في المسألة الشرقية أو لعبة الأمم مع الدولة العثمانية باعتبارها كانت تمثل في نظر الغرب المسيحي ، قوة الاسلام السياسية والعسكرية الأولى واستراتيجيات أوروبا المحيطة بالدولة العثمانية والفجوة التي عبر منها أولئك للتدخل في شؤون الشرق المسلم بما يسمى (الامتيازات الأجنبية) ، كما يتضمن محاور الهجوم الذي تمكن الغرب الصليبي من شنه .

الكتاب الثالث = الصدمة والمجابهة :

ويتضمن ما أحدثه الهجوم الماكر من صدمة أدت إلى وعي أولي عند المسلمين وما تبعه من حركة انبعاث ومحاولات للعودة الصادقة إلى الإسلام ، كما يتضمن حركة المجابهة التي قام بها العلماء والحركات والمنظمات الاسلامية الاقليمية والعالمية لصد الهجوم الماكر وتخذيله ولمحاولة استئناف حياة اسلامية من جديد وسط صراع دولي محموم . . .

الكتاب الرابع = ملامح ومقومات الحكم الاسلامي :

ويتضمن أبحاثاً في طبيعة الحكم الاسلامي - المؤسسات الشرعية الدستورية - المبادىء الأساسية التي يعتمدها الحكم في تقويم أمور الحياة العامة : التربية والتعليم - الاقتصاد والتجارة - العدالة والحدود والقصاص - العلاقات الخارجية الدولية الاعلام - المقومات الاجتماعية الداخلية - السلم والحرب - القوميات والأقليات . . .

كما يتضمن مناقشة للدساتير الاسلامية المعتمدة من قبل دول أو أحزاب أو كتاب . . .

الكتاب الخامس = كيف نقيم حكم اسلامي من جديد :

ويتضمن مناقشات حول الوسائل المطروحة لاقامة حكم اسلامي ودراسة الثورات الاسلامية الجهادية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري حول التجربة الوهابية ـ والتجربة الايرانية ـ والتجربة الباكستانية ـ واقع الحركات والمنظمات الاسلامية الاقليمية والعالمية ، كما يتضمن دراسة حاضر العالم الاسلامي ـ العلاقات الدولية ولعبة الأمم .

وأخيراً كيف السبيل ؟؟

* * *

أمنيتي الوحيدة مقاربة السداد والصواب . . وأن يدرك الله الناس برحمته فيقام في الأرض حكم اسلامي صحيح معافى . . . فتحل عليهم بركات من السماء والأرض . . . ويتحرر الانسان فيرى العالم بنور جديد . . . وتستأنف الحضارة الاسلامية عطاءها من جديد . . . وما ذلك على الله بعزيز .

طرابلس في رمضان المبارك ١٤٠٠
الموافق لـ آب ـ أغسطس ١٩٨٠ م .

أبو مؤمن

الفصل الاول

غايــة الوجود الإنسـاني

إن أعقد مشكلة يواجهها الإنسان عند دراسته لنفسه وللعالم المحيط به « معرفة » موضعه في هذا العالم ، و« معرفة » الارتباط الصحيح الذي يجب أن يقوم بينه وبين كائنات هذا الوجود العجيب . هذه المشكلة التي تفرض ذاتها بقوة وعمق ، لا يستطيع الإنسان ـ أو ليس من مصلحته ـ أن يتهرب من مواجهتها ، أو أن يتقبل المعالجة الجزئية السطحية ، دون التغلغل لأعماقها وملامسة جوهرها . . .

مشكلة الوجود الإنساني :

هذه المشكلة ـ معرفة وجوده الكوني وصلته بالوجود ـ تخلق في روحه حالة من القلق والاضطراب تحييه في تمزق داخلي ، وتدفعه لأزمة شعورية هائلة ، لا يقدر على إزالة آثارها وإعادة البناء النفسي المتكامل العميق ، إلا عندما يجد الحل ويهتدي إلى السبيل ، إن مرحلة التفتيش عن الذات الواعية المدركة ، ومرحلة التعرف عن مكانة « هذه الذات » بين العوالم ، ومرحلة إقامة الصلات الصحيحة بينها هي من أخطر المراحل ، منهجاً ونتيجة ، على حياة الإنسان في هذه الأرض . فالمنهج الذي يتبناه الإنسان في بداية « التطلع » الكوني هذا ، له أثره البعيد في ترتيب النتائج الحاسمة : في ضياعه عن « ذاته » أو معرفته الكلية . .

تشويه التصور :

الإنسان لا يعيش وحده ، فهو في كون فسيح مليء بالأحداث وبالآيات ، مليء بالموجودات والأشياء ، مليء بالإنسان ذاته . . يخلو الإنسان لنفسه ، ويستبطن الكون ـ فيسمع صوتاً « عميقاً » يخرج من لدن الكون

يناديه ، بعمق الفطرة ، كي يتناغم معه في حياة مبنية على نظام واطمئنان ، قائمة على معرفة أصيلة أزلية وليست عارضة صدوفة .

ويحاول الإنسان أن يكون هو والكون والحياة في تناغم مستمر ، وفي انسجام دفاق حي . لكن ما إن يهمّ في محاولته هذه حتى يرتطم بحجُبٍ مُعَماة معمية ، تشوه معالم التصور السليم ، فتفقده السبيل ، وتحرفه عن الصراط ، وتدفعه دفعاً ـ بسياط من حديد ـ نحو مصيره الأسود المحتوم . . وهي ، في أثناء تشهويهها ومسخها للتصور وللارتباط الكوني ، تمني هذا الإنسان المحاول » بالوصول إلى الهدف المنشود .

إن الشعور بالذات وبالعالم شعور عميق نظيف من حيث المبدأ ، شعور يولد مع الإنسان وينمو ويتضخم ، ثم يغدو معضلة إنسانية ، تأخذ سبيلها إلى « مجامع ذاته » بحدة وعنف ، فإما أن تهلكه ، وإما أن يجابهها بحل عميق الجذور ، يضرب إلى الحقيقة الأزلية الخالدة .

نوع العلاقة بين الفرد والعالم . . تلك هي المشكلة . .

من هنا يمكن أن نقول : « إن المشكلة الأساسية الأولى ليست كما تراها الفرويدية ، أي كبت تلك أو هذه الحاجة الغريزية ، بل هي كما وجد كثير من المفكرين والعلماء ، في نوع العلاقة التي تربط الفرد بالعالم »[1] .

ويمكن أن نضيف : « قد يستطيع الإنسان أن يكيف نفسه بالنسبة لكل شيء ، ولكنه يعجز عن إجراء التكيف بالنسبة لشيء واحد ، ألا وهو أن يرضى بموقف مبهم غامض حول الأشياء الأحداث التي تحيط به حول طبيعتها ومعناها . . .

لكن الإنسان يثير هذه المشكلة فيسأل نفسه : من أنا ؟ ما هو مكاني أو

(١) الايديولوجية الانقلابية ص ١٧٦ ـ ١٧٩ .

مبرر وجودي في هذا الكون ؟ ماذا يجب أن أصنع اليوم أو غداً « أو ماذا يجب أن أكون . . . ؟ » .

الإنسان هو المخلوق الوحيد ، الذي يحس عفوياً بأن هناك في الطبيعة أكثر مما تراه العين ، هذه المجابهة للمجهول ـ بالاضافة إلى وعيه للموت ـ أضافت إلى وجوده بعداً « مثيراً » جعله يتجاوز القبول الحيواني الساكن الأبله للتاريخ ، ويحاول دائماً أن يعطي الحياة معنى مستقراً « ثابتاً » .

هذه المشكلة . . مشكلة معرفة الوجود الذاتي وصلته بالكون العجيب ومعرفة مبدئه ومنتهاه ، وإدراك غاية الوجود الكلي للكون والإنسان والحياة . . . هذه المشكلة وما يتفرع عنها ويتصل بها من موضوعات كانت ولا تزال معضلة البحث الإنساني ، وسبباً « أصيلاً » في لقاء الإنسان مع الحقيقة أو ضياعه عنها .

لمعالجة المشكلة الإنسانية هناك أسلوبان : بشري ورباني :

ولقد تصدّى الإنسان لمعالجة هذه المشكلة . . تصدّى لها وحيداً « منفصلاً » عن الحقيقة الكبرى ، وفاقداً للتصور العميق السليم . . وتصدّى لها بفيض إلهي دفاق ، وبقبسات ربانية خالدة . . . فلا غرو بعد ذلك أن نرى التصدي الأعزل عاجزاً عن استئصال الأزمة . . وحل المشكلة ، بينما التصدي الآخر ، يطلق للروح أشواقها ، فترى بأصالة ووضوح عمق الارتباط بين مختلف أجزاء الكون العجيب .

إن التصدي لمعالجة المشكلة جزء لا يتجزأ من الإنسان ، بل هي حركة دائبة متصلة بوجوده ، فإذا التوت ـ هذه الحركة ـ في خطوط متكسرة أو منحنية خوفاً من المجابهة الواضحة البينة تكسر الإنسان في أعماقه ، والتوى في سيره نحو المعرفة الكبرى ، وإذا تصاعدت في خط مستقيم تصاعد الإنسان بعبقه الروحي ، وبكينونته الفطرية نحو شاطىء الأمان ، حيث الاطمئنان

والاستقرار . . كذلك إذا خمدت هذه الحركة خمد الإنسان وتلاشى عن الوجود الحياتي المعروف .

فللتصدي ، إذن ، قيمة كبرى . . لذلك كان على الإنسان أن يقف طويلاً ، يراجع رصيده وزاده قبل أن ينطلق في حركة المجابهة والتفتيش .

ومن خلال العرض السابق ، نجد أن أمام الإنسان تصورين لا ثالث لهما :

فإما أن يتبنّى التصور الايماني للكون والانسان والحياة وإما أن يتبنّى مشكلة الوجود الكوني بمفرده بناء لتصوره الخاص عن معضلات هذا الوجود .

وبمعنى آخر ، هناك تصور رباني وآخر بشري ، أو تصور إسلامي وآخر جاهلي[1] ولا بد من الاختيار بينهما قبل الانطلاق نحو الهدف المنشود .

* * *

التصور البشري واحد وإن اختلفت أشكاله :

ولقد انتقل التصور البشري عبر مراحل عديدة ، وكان لكل مرحلة شكل وموضوع ، حتى ملئت جعبة الفكر الإنساني بمذاهب عديدة ، وبمنطلقات مختلفة ، وكاد الباحث يقول بتصورات « بشرية » لا « بتصور » واحد ، وبنظرات « إنسانية » لا بنظرة واحدة . .

والحقيقة أن مجابهة المشكلة الوجودية للإنسان والحياة ـ من لدن الإنسان ـ كانت عبر الزمن ، مجابهة واحدة ، نظرة واحدة ، فلسفة واحدة ، تصوراً واحداً وإن اختلفت أشكال المجابهة والنظرة والفلسفة والتصور .

(١) راجع فصل « المجابهة » من هذا الكتاب .

فالتصور البشري ، إغريقياً كان ، أوكنسياً منحرفاً ، عقلياً أو حسياً طبيعياً أو مادياً ، أو مادياً جدلياً ، أو وجودياً دراونياً ، أو فرويدياً ليبرلياً ، أو اشتراكياً أممياً أو قومياً أو . . . أي شيء آخر تصور واحد ، يهدف إلى شد الإنسان نحو الأرض ، وقطع كل صلة بينه وبين الحقيقة الأزلية الكبرى : الله . . . تصور واحد يعمل لبتر الارتباط الروحي بالكون والإنسان والحياة ، ويسعى لطمس معالم الفطرة النظيفة في أعماق النفس الإنسانية السوية . . تصور واحد ، يحاول ـ بقصد أو عن غير قصد ـ تشويه غاية الوجود الإنساني في هذه الدنيا ، ومسخ دور الإنسان على هذه الأرض . .

التصور البشري . . تصور واحد . . ولو اعتمد ، في سبيل الوصول إلى أهدافه ـ أساليب مختلفة . . فتأليه عقل الإنسان أو الطبيعة أو المادة أو الحرية اللاواعية أو الجنس أو الاقتصاد . . الخ . . كل ذلك أساليب مختلفة ، تخدم غاية واحدة ، وتدفع هذا الكائن المعذب التائه « الإنسان » نحو هوة سحيقة ليس لها قرار . . نحو قلق محتوم ، واضطراب مخيف ، وهم قتال . .

نحن إذ نقرر هذه النتيجة الخطيرة لجهد الإنسان « الفرد الأعزل » في مجابهة ومواجهة مشكلة الوجود والارتباط الكوني ، لا ننسى أن نقدر في هذا الجهد ، القدرة المبدعة ، والقوة الخلاقة التي فيها وصل إلى هذا التعدد في أساليب الفلسفة وطرق المعرفة . . وهما ـ أي القدرة والقوة ـ سرٌ من أسرار هذا الإنسان المعجز . إن هذه الأساليب والأشكال ـ بقطع النظر عن غايتها المسيخة وهدفها الملوث ـ بقصد أو عن غير قصد ـ دليل أكيد على حاجة الإنسان لتفهم وجوده وصلته بالكون والحياة . . وهي فضلاً عن ذلك ذخيرة فكرية كبرى ، تُعِينُ « شكلاً » على تعميق فهم الوجود ، وإدراك البعد الإنساني في هذا الكون الفسيح . .

من أشكال التصور البشري العقلية :

ومن أصحاب هذا التصور مفكرو المدرسة العقلية ، فهؤلاء جعلوا العقل أساس المعرفة الصحيحة ، ومنحوه حق الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما

فيها من سياسة وقانون ودين وسموا عصرهم هذا ـ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـ بعصر « التنوير » أي عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي وغير خالق للعالم .

الحسية :

ومنهم الحسيون الوضعيون الذين جاؤوا ـ في فجر القرن التاسع عشر ـ بنقيض للمعرفة الكنسية ، والمثالية العقلية ، وأعلنوا عن « معرفة يقينية حقة » ألا وهي الطبيعة . . فالطبيعة تنطق عن نفسها ، ويجب على الإنسان أن يعتمد منطقها إذا أراد أن يعيش فيها ، ومنطقها وحده لا منطق المؤلهين ، ولا منطق العقليين ، ولا اي منطق آخر . . هو الذي يخط الطريق المستقيم ، ويحدد أهداف الإنسان الكبرى في الحياة . . .

الماركسية :

والماركسيون ـ الماديون الجدليون ، حطّموا القيم الذاتية ، وأولوا المادة ثقتهم الكبرى وجعلوها مصدر كل شيء ، حتى الإدراك والعقل مسخوه فصيروه نتيجة المادة ، أو هو « مادة عالية التنظيم » وجعلوا المتحكم في سير التاريخ تنازع الأضداد والطبقات ، والعامل الاقتصادي أهم عوامل الحياة ، وهو الذي يسود الوجود الإنساني ، وبه تتحقق سعادة الفرد في ظل الجماعة . . تلك الجماعة التي تعيش يومئذ بلا سلطة . . . فالدولة تزول وتتحطم بإرادة البروليتاريا ، وعندئذ تكون سعادة جماهير الناس قد بلغت ذروتها . . .

الوجودية :

أما الوجوديون ، فقد جعلو « الشعور » موجوداً لذاته ، أي أنه موجود ليحقق نفسه لا ليحقق ماهية خارجة عنه ـ كالأشياء المادية ـ. والموجود بالذات ، أي « الشعور » متغير ، قوامه النزوع المستمر نحو المستقبل ، والتنصل المستمر من الماضي ، فهو موجود له في كل لحظة حالة غير اللحظة السابقة ، على خلاف الأشياء المادية ذوات الذاتية الثابتة . . ومن هنا كانت حرية الإنسان صميم وجوده الشعوري القلق ، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة.والقول : « إن الإنسان حر » مرادف للقول : « إن الله غير

موجود »[1] ولِمَ لا أكون حراً . . ما دمت حذفت كل جوهر من فوقي ومن خلفي فأنا غير مرتبط ولا مربوط بمثل ناموسية . .»[2] الخ .

وبعد هذا الاستعراض السريع نجد صواب ما ذهبنا إليه ، وهو أن التصور البشري تصور واحد ، يهدف لغاية واحدة وهي إبعاد الإنسان عن الحقيقة الكبرى ، وطمس معالم دوره الأصيل في الكون . . تصور واحد ولو تعددت المذاهب . . وجميعها ـ كما تلمسنا ـ تضع هذا الكائن المسكين « الإنسان » ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ في حلبة صاخبة من الصراع المؤدي إلى قلق ، وحيرة وارتباك . .

* * *

أما التصور الإيماني ، فهو تصور بسيط قريب من الفطرة الإنسانية ، وملاصق للطبيعة البشرية ، وملتحم مع الكون بأسره . .

التصور الايماني يخاطب الكينونة الانسانية ويردها إلى الله :

التصور الإيماني تصور فعال لا تعقيد فيه ولا غموض ، يواجه المشكلة الإنسانية والكونية بسهولة ويسر . . يبسطها حتى تراها بوضوح ، ثم يعيد تركيبها لتراها بعد ذلك بوضوح أكثر . . . وأهم ما فيه أنه يمنح الإنسان عندما يريد التصدي للمشكلة الوجودية ، قوة التصدي الإلهي ، فيغدو صاحبها كبيراً عظيماً سيد الموقف ، يواجه المشكلة وآثارها بلين وأناة .

هذا التصور . . يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء . . .

---

(1) الموسوعة العربية الميسرة ـ مادة جان بول سارتر صفحة ٩٤٢ .
(2) كتاب من الجوهر إلى الوجود لكمال الحاج .

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها ، وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام . .[1] .

ولنا بعد ذلك أن نسأل التصور الإسلامي عن الإنسان ومشكلته وصلته بالوجود من هو ، كيف وجد ، ولماذا ؟ ما ارتباطه بالأكوان والعالم ، وما علاقته بنفسه وبالآخرين ؟ ما هي قدراته وإمكاناته ؟ كيف يعيش ، ولماذا يعيش ، وما هو مصيره ومصير العالم ؟ . .

وتبعاً لمنهج التصور الإسلامي في تبسيط المشكلة ، ثم إعادة تركيبها لنراها بوضوح أكثر فإننا نحدد أبعاد المشكلة بالإنسان والكون والحياة[2] .

ففي الإنسان : يرفض الإسلام نظرية التجزئة التي تنادي بالعقل أو بالحس أو بالقلب أو بالشعور كمصدر أساسي للمعرفة الصحيحة ، ويقول بكلية الإنسان الشاملة ، بكينونته المطلقة ، بروحه التي هي من الله .

ولا يعني هذا تحديداً لماهية الروح : فالروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلا قليلاً ، إنما ندرس هنا خاصة من خواص الروح . فنرى ـ من خلال هذه الومضة الإلٓهية ـ كل شيء في الوجود . ننظر بها إلى أنفسنا ، إلى الناس ، إلى الكون وإلى الحياة . . فلا يكل النظر ولا يرجع حسيراً ولا تضطرب معه المعرفة ، لأننا نظرنا بكلية شاملة لا تعرف التجزئة ، بكلية لا تعرف نقائض العقل والحس والقلب والشعور ، أو أي شيء آخر . .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي وخصائصه ـ سيد قطب صفحة ١٢٦ .

(٢) خوفاً من الخروج عن نطاق البحث والاستطراد الكلي مع التوسع الموضوعي في هذا البحث الخطير فإننا سنضطر للإيجاز آملين من الله أن يوفقنا لتوسيعه في كتاب مستقل .

الروح أداة المعرفة الكبرى والوعي خاصة من خواصها

هذا التجميع لوسائل المعرفة يوجد الوحدة في أعماق الذات الإنسانية ، فلا يدعها بعد ذلك فريسة للتجزئة أو للخطأ أو للظن ، أو لمحدودية العقل والحس والشعور . إن الروح الإلٓهية التي حلت بالإنسان الأول بالنفخة الربانية المباركة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾[1] ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾[2] هي التي أوجدت في الإنسان « القدرة الخاصة » المميزة له عن كل خلق الله ، عن الملائكة وعن الحيوان وعن الجماد . هي التي أوجدت فيه « الوعي » وعي الذات ووعي الكون والحياة ، وهي التي منحته « الإدراك » وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات . .

لقد نشأ الوعي في الإنسان ونشأ الإدراك ، لحظة إيداع جسد الإنسان روحاً من الله ، فاستحالت عندها مادة هذا الجسد إلى ذات عاقلة مفكرة مدركة مميزة واعية ، تملك « القدرة » على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها ، وتملك « القدرة » على إنشاء رابطة بينها وبين ما ترى ، وعلى « التمييز » بين هذه الأشياء بدقة وعمق ! هذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الإنسان . وكأنها من علم الله الذى خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب ، تكريماً له وتشريفاً ، وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمه له ﴿ وإذ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً ﴾ ﴿ وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمَّ عرضهُمْ على الملائكة فقالَ أنبئوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كنتُمْ صادِقين . قالوا سبحانَكَ لا علمَ لنا إلاّ ما علّمتنا إنَّك أنتَ العليمُ الحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أنْبِئْهُمْ بأسمائِهِمْ فلمّا أنبأهُمْ بأسمائهم قالَ ألمْ أقلْ لكم إنّي أعلمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ وأعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون ﴾[3] . ﴿ ولقد كرَّمنا بني

---

(١) الآية ٩١ من سورة الأنبياء

(٢) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

(٣) الآيات ٣٠ ـ ٣٤ من سورة البقرة .

آدم . . ﴾[٤]

فآدم ، الإنسان الأول ، منذ الوهلة الأولى من حياته استطاع أن يسمي الأشياء بأسمائها ، أي أن يعيها بعد أن « تعرف » عليها ، وبمعنى آخر : أن « يميزها » بعد أن « عرف » صفاتها وخصائصها .

ولا ريب أن هذا « الوعي » أو « الإدراك » أو بمعنى شامل « المعرفة » ترتقي كلما تأصلت العلاقة بين الإنسان وبين ما يحيط به : فكلما أحسن الصلة بما حوله من الوجود ، وأقام الارتباط المتين كلما تعمقت « معرفته » وتأصلت ، لا تخشى دركاً ولا حداً .

ومن هنا كان الوعي « خاصة » من خواص الروح لا كما تقول الماركسية (خاصة مادية عالية التنظيم) ـ[٢] وتأكيداً على هذا المعنى يتلقى وعي الإنسان ـ وبصورة دائمة ـ إمدادات خفية تنير له الدرب ، وتشع أمامه ما ظلم من جوانب الوجود ، فإذا هو يرى بنور الله .

جاء في الحديث : ﴿ اتَّقوا فِراسةَ المؤمن فإنَّه ينظرُ بِنُورِ الله ﴾ .

جاء في الحديث القدسي : ﴿ ما يزالُ عبدي يتقرّب إليّ بالنوافِلِ حتّى أحبّه ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يبصرُ به ويدَهُ التي يبطِشُ بها ورجْلَه التي يمشي بها . . .) .

النبوة ارتقاء في وسيلة المعرفة :

وللإنسان قدرة على الارتقاء أكثر فأكثر ، وعلى تلقي « المعرفة » من مصدرها الأول . . لكنها قدرة مرتبطة بحالة فريدة لا تتكرر ولا تعمم ، حالة اختص بها صنف من الناس ، هم بشر ، لكن ارتقت أرواحهم وتفتح « وعيهم » وتوسع « إدراكهم » بإرادة الله ، ليتلقوا عنه مباشرة أو بواسطة

(١) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .
(٢) انجلز .

وحي أو من وراء حجاب[١] اسلوباً في المعرفة ، ومنهجاً في الحياة . . أولئك هم الأنبياء . . .

* * * *

الكون مسبّح لله مسخّر للإنسان :

أما الكون . . الكون العجيب . . ففيه من الآيات ما يدعو إلى الدهشة والاستسلام . . فالأكوان الفسيحة الهائلة . . والعوالم المتمادية المتصلة . . والسماوات والنجوم والشمس والأقمار . . والأرض . . والجبال والبحار والأشجار . . والنسيم والهواء والرياح . . والغيوم والثلوج والأمطار . . والدنيا بما فيها من معطيات . . كلها تدعوك برفق وإيمان إلى إصاخة السمع لتعي عمق التسبيح والتمجيد للخالق المبدع ، ولتحرّك في مكامن روحك ومضات التناغم والتجاوب فتتناغى مع الأكوان في تسبيح وتنزيه من خلق ﴿ إنّ في خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الّليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الذين يَذكرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبِهم ويتفكرونَ في خلقِ السموات والأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ . . ﴾[٢] .

﴿ تسبِّح لهُ السموات السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهِنّ ، وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يسبِّح بحمده ولكنْ لا تفقهونَ تسبيحَهُمْ إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً ﴾ [٣] .

ثم إن لهذا الكون رسالة غير التسبيح ، الذي هو أصل وجوده ـ رسالة تحققها الأكوان بعفوية دون تعقيد ودون معارضة ﴿ وأذِنَتْ لربِّها

(١) يقول الله سبحانه في سورة الشورى (آية ٥٢ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمه الله إلاّ وحياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أوْ يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه ما يَشَاءُ إنَّهُ عَلِيمٌ حكِيم ﴾ .
(٢) الآيات ١٩٠ ـ ١٩٢ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

وحُقَّتْ ﴾(١) تحققها بكليتها .. بكينونتها المفطورة عليها .. فلا تشعر - وأنت تتبع آثار هذا التطبيق - بأي اختلال أو انحراف .

فما انقطعت الشمس عن أنوارها ، ولا الغيوم عن أمطارها ، ولا الأشجار عن ثمارها ، ولا الأرض عن دورانها . بل كل في تأدية رسالته .. في خدمة هذا الإنسان ..

فالأكوان مسخرة لهذا الإنسان ، مذلّلة له .. قائمة على تلبية حاجاته ومتطلباته ﴿ وسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾(٢)

أليس من العجب أن يتعبد الإنسان الكون ؟؟.

إن ارتباط الأكوان بالإنسان ارتباط مصيري محتوم ، فلا معنى للأكوان دون الإنسان ، فإذا ما زال الإنسان من الوجود زالت الأكوان بصورة تلقائية حتمية .. فخالقها أودعها وضمنها من الخصائص والوظائف ما يجعلها دون هذا الكائن البشري لغواً ... فهي له بكل ما فيها وبكل أعماقها ...

والعجيب أن الإنسان ، الذي سخرت له هذه الأكوان ، حين يتصدى لفهم ما سخر له يضل ويفتتن فيتخبط في دياجير الأفكار والفلسفات ... فهو مرة يتعبد ما سخّر له ، ومرة أخرى يعتبرها مصدراً « أصيلاً » في « معرفة » وجوده ، ومرة ثالثة يجعلها مادة يصدر عنها هو بالذات ، ومرة رابعة .. وخامسة . الخ .

التصور الإسلامي يجعل الإنسان فوق الأكوان ..

أما التصور الإسلامي ، فإنه يقيم الارتباط بين الكون والإنسان على أساس السيادة .. السيادة المطلقة للإنسان على الكون وما فيه .. فهو ليس عبداً للكون وللمادة ، بل هو سيد يتصرف بالكون تصرف السيد ذي الإرادة بإذن الله .. وهكذا يجعل الإنسان فوق الدنيا ، يسوسها لمصلحته وفق ما

---

(١) الآية ٢ من سورة الانشقاق .

(٢) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

تقتضيه حاجاته .. فهي - أي الدنيا - ليست مصدراً للمعرفة ، ولا مصدراً للوجود ... وليست في ذاتها إلا حاجة ، يقضي الإنسان العبد وطره منها ، ويدعها ليسمو فوقها ، وليصل بعد ذلك مع جوهر خلقها إلى تسبيح عميق للواحد الأحد ..

* * *

الحياة قبس من نور الله يحاول الإنسان إطفاءه :

أما الحياة .. فهي قبس من نور الله .. وهي بذلك مشرقة بالبهاء ، وتشع بالخير والأمان .. لكنها بالرغم من ذلك كثيراً ما أظلمت وهي في عهدة هذا الإنسان ؟؟ ..

لقد تجاوز الإنسان غاية الوجود ، فرتع في حبور ، وظن أنه يحور ، فالحياة عند كثير من الناس ، فلاسفة وعاديين ، متعة وشهوة ، ولذة وبهجة كالحيوان ، أكل وشرب ونوم ونكاح ، وإذا ما اخترع الإنسان واكتشف فلتحقيق أسلوب أفضل في حياة المعدة والجنس وفي حياة الترف واللهو ..

صراع الأفكار في الحياة :

ولقد ازدحمت الفلسفات والأفكار حول معنى الحياة .. وراحت كل واحدة منها تدلي بدلوها وتقدم زبدة ما عندها .. وهي بجهدها هذا تحاول صبغ الحياة بصباغها ، وتحاول أن يفهم الإنسان الحياة فهماً « ذاتياً » كما تريد ..

واصطرعت الأفكار .. وكلها تبغي ظاهراً معالجة أسلوب الحياة ، خدمة لهذا الإنسان حتى يحيا حياة طيبة يسعد فيها ويهنأ .. أو كذلك يظن واضعوها - فكانت المادية الليبرالية ، والماركسية ، والاشتراكية ، والأممية ، والقومية ، والوجودية ، والفرودية ، وحتى الفوضوية ..

ولكن جميع هذه الأفكار بقيت في إطار لم تتعده ، بقيت في بحث واحد لم تتجاوزه : في الكسب والمعيشة ، والجنس والشهوة ، والفرد والأمة .. بقيت في هذا الحد المحدود البسيط الذي لا يشكل إلا جزءاً يسيراً وربما تافهاً من حياة الإنسان ..

تهرّب الفلسفات من معالجة جوهر الوجود :

ودائماً تهربت هذه الفلسفات والتصورات المادية الجاهلة ، تهربت عن قصد أو عن غير قصد من معالجة جوهر الوجود وغايته ، لماذا وجد هذا الإنسان ؟ وما معنى الحياة ؟ أمن أجل الصراع .. صراع الذات مع الطبيعة ، أو مع المادة ، أو مع نفسها ، أم من أجل تحقيق ذاته في وجود مبهم غائم ؟؟ ..

أسئلة تلح بذاتها وتفرض نفسها بداهة على فكر وإدراك هذا الإنسان ، تشتد عليه وتطالبه برجاء وقوة أن يمنحها الجواب الشافي ؟؟ .

ويعجز التصور الجاهلي أن يجيب على أي من هذه الأسئلة ، ويتهرب من الجواب ، ويحور في الكلام ، ويتشبث بألفاظ وبمشتقات الألفاظ ، حتى تسأم النفس البشرية من الحل ، فتتهاوى في الضياع واللامبالاة ، أو ترتد بقوة وارتفاع نحو التصور الإيمائي ... التصور الإسلامي .

الإنسان في الحياة خليفة مستناب ، فعليه أن يعي دوره ويلتزم بحدود الاستنابة:

فالإسلام يعطي للحياة معنى تشعر ـ وأنت تتلقاه ـ بتجاوب الكينونة البشرية معه ، بتجاوب الأعمال الإنسانية بالتحامها معه في كل فقرة من فقراته وبكل جزء من جزئياته ...

والإسلام يعلن بوضوح تام أن الإنسان وجد في هذه الحياة نيابة عن الله سبحانه ، فدوره في الحياة دور خليفة مستناب في تصريف الأمور والشؤون .

فالخلافة نظرية أصيلة في التصور الإسلامي ، وعلى ضوئها يفسر الإسلام دور الإنسان في الوجود ، دوره في الحياة ، دوره في التفاعل والإبداع .. من أجل هذا سخرت له الأكوان ، وذللت له الأفلاك ، وسعى الوجود لخدمة من كرّمه الله فاستنيب في الحياة ..

« إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف ما في هذه

الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه »[1] .

وإذن ليس هناك في الوجود أسمى وأرقى من هذا الدور الخلاق .. دور الخلافة في الأرض .. وليس هناك من تفسير كلي للحياة أبلغ وأصوب من هذا التفسير العميق الدقيق .. الذي زوى بين طرفيه كل القيم الذاتية ، والمبادىء السليمة من أجل حياة أفضل .

ولا بد لهذا الإنسان المستناب ، أن يعي دوره العميق هذا ، وأن يقوم بمستلزمات الخلافة ، ولا يمكن أن يوفق في هذا إلا إذا اتبع منهج الله الذي استخلفه .. منهجه في الحياة وفي الوجود ، في صغائر الأمور وكبائرها ، وفي مختلف الشؤون والفنون : في الدولة والحكم ، في الاقتصاد والسياسة ، في التشريع والتنظيم ، في التصور والتفكير ، وفي كل شيء ..

وغاية الخلافة غاية رفيعة مقدسة تتهاوى إزاءها كل الغايات وتتضاءل .. غايتُها أن يعرف هذا المستناب من أنابه .. فيرتد إلى الأرض ، ليعيش فيها وليحقق إرادته وفق ما أراده المستخلف بصدق وأمانة وإخلاص ..

غاية الخلافة ، تحقيق عبودية الإنسان لله في كل مجالات الحياة :

غاية الخلافة أن تتوحد الأرض والسماء ، والإنسان والأكوان ، والحياة والمهات بحركة واحدة لا تعارض فيها ، وبنغم واحد لا نشاز فيه . فكل ما في الوجود من إنسان وأكوان وحياة يعبد الله .. يمجد الله .. كل ما في الوجود ، في ذاته وفي جوهره وفي واقعه ، يعلن العبودية الكاملة لله .. فان تحركت الأكوان ففي عبودية الله ، وإن تحرك الإنسان ففي عبودية الله ، وإن استمرت الحياة ففي عبودية الله .

(١) في ظلال القرآن ـ للأستاذ سيد قطب الجزء الأول صفحة ٦٥ الطبعة المصرية .

وفي هذا يقول الله سبحانه ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ ﴾ « فالتعبد لله أي العبودية المطلقة له هو غاية الوجود ، وهو الوظيفة الكبرى الأساسية المكلف بها الإنسان الحي الواعي - فعندما يمارس وظيفته هذه ، عند ذلك وعند ذلك فقط يدرك غاية الوجود ، ويحس أنه موجود حقيقة في هذه الدنيا . . موجود لغاية سامية متناغمة مع غايات الأكوان المحيطة به ، منسجمة مع وجود العوالم حوله ، فكلها تسير بدائرة العبودية لله ، كلها تتعبد الله ، تسبحه من أعماقها ، وتقدسه بحركاتها ، وتمجده بكليتها . وبهذا العمق الإيماني يستحيل الجماد الميت إلى حي له وجود وله غاية ، يشارك الوجود الإنساني غايته ، ويسيران معاً بانسجام وتناغم نحو الله ﴿ والسماءَ بنيناها بأيد وإنّا لموسِعونَ . والأرضَ فرشناها فنِعمَ الماهدون . ومِنْ كل شيء خلقنا زوجَيْن لعلَّكم تذكرون . ففرُّوا إلى الله إنّي لكم منهُ نذيرٌ مُبينٌ ﴾(١)

« هذه الحقيقة الكونية الهائلة هي التي تنير الدرب للإنسان التائه ، وهي التي تقوده إلى شاطىء الأمان والاستقرار ﴿ الله وليُّ الذينَ آمنُوا يخرجهُمْ منَ الظلماتِ إلى النور ﴾ . روى ابن كثير في تفسيره (يقول الله تعالى : ابن آدم : خلقتُك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلتُ برزقكَ فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء . .) أما إذا أراد هذا التائه أن يستكبر في الأرض ويتفلت من عبودية الله فيكون قد تعبد هواه ، ودخل عالم الظلام والنسيان والضياع . . ﴿ الذينَ كفرُوا أولياؤُهم الطاغوتُ يُخرجونهم مِنَ النورِ إلى الظُلُماتِ ﴾(٢)»

---

(١) الآية ٤٩ من سورة الذاريات .

(٢) من مقال للمؤلف بعنوان « أنا عبد . . . لله إذن أنا موجود » منشور في مجلة حضارة الإسلام المجلد السابع العدد الثامن الصفحة ٢١ .

العبودية مظهر الوعي الإنساني ودليل على الوجود :

ويؤكد التصور الإسلامي على العبودية ، ويسعى لتعميقها في مختلف جوانب الوجود . . فكل حركة وسكون من قبل هذا الخليفة المستتاب ، يجب أن تفسر على ضوء العبودية ، وكأن هذا التصور أراد أن يربط - وبصورة نهائية - بين الحس الوجودي عند الإنسان وبين العبودية . . فكلما تعمق الإنسان في فهم العبودية وتطبيقها على مظاهر وجوده كلها كلما أحس بوجوده وبارتباطه بالكون ، وكلما بَعُدَ عنها بروحه وبوعيه وبفعله كلما ارتكس في هبوط بشع مفزع إلى دون الإنسانية الرفيعة بل إلى دون الحيوانية . . وبهذا يصور القرآن الذين كفروا بأنهم كالأنعام بل هم أضل . .

* * *

وبعد أن بسطنا المشكلة ، وعالجناها مجزأة في الكون والإنسان والحياة . . كان لا بد - إذا أعدنا تركيبها لنراها بصورة إجمالية وفقاً لما أعلناه عن منهج التصور - أن ندقق بوجه عام في هذه الأجزاء الهامة .

مشكلة الإنسان مشكلة التعرف إلى الله :

فقد رأينا بوضوح كيف تناسقت الأجزاء في عقد فريد وفي التحام شديد لخدمة الغاية الكبرى وهي معرفة الله سبحانه . . ومن هنا نرى أن المشكلة الإنسانية تتلخص في معرفة الله أو عدم معرفته . . وهو الصراع الأصيل في الإنسان . فالإنسان ، منذ مطلع التاريخ يعاني هذا الصراع ، فيمر بأزمة إيمان وأزمة روح تليها أزمة أخلاق وأزمة وجود ، حتى يقيض الله له نبياً أو نبياً رسولاً يهديه سواء السبيل ، ويعرفه بالله العلي القدير ، ويضع بين يديه منهج الحياة السليمة السوية .

فالمشكلة إذن ليست مشكلة مادة أو جنس أو اقتصاد أو حكم . . إنما هي مشكلة التعرف إلى الله . . وهي بذلك بسيطة جداً ومعقدة جداً ، بسيطة حين نواجهها بتصور سليم ، بتصور إيماني عميق ، ومعقدة حين نجابهها فرادَى عزلاً ، بعقول قاصرة قطعت صلتها بالحقيقة الخالدة الكبرى : الله .

﴿ أفمنْ يمشي مُكباً على وجهِهِ أهدى أمْ منْ يمشي سَوِيّاً على صراط مستقيمٍ ﴾ .

الحضارة انعكاس لأنشطة الإنسان في هذا الكون ، وهي بذلك صورة لممارساته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه . أي إن الحضارة ليست المبادىء والأهداف بذاتها . . . فالمبادىء أو القيم أو التصورات تحمل معاني مصطلحاتها ، وهي التي توحي بممارسات الإنسان المختلفة وعلى كل بعد .

الحضارة تفاعل الإنسان بالكون :

أما الحضارة فهي نتيجة تطبيق تلك المفاهيم في ظرف أو ظروف معينة ، وهي أيضاً تفاعل الإنسان بالكون عبر زمان محدود أو أزمنة متعاقبة . . . ذلك أن المبادىء ـ كالإسلام مثلاً ـ مجموعة قيم ومفاهيم عن الحياة تتضمن عقيدة وأمراً ونهياً وتنظيماً لشؤون الحياة المختلفة .

غير أن هذه المفاهيم إن لم تمارس تغد تراثاً وكتباً قيمة ليس إلاّ . . . والكلام والسطور لا يصح تسميته حضارة بل يسمى بأسمه ، أي مبادىء . . . حتى إذا ما ترجم الكلام إلى واقع ، والأمر والتنظيم إلى فعل وممارسة ، أي إلى وجود في عالم وإلى تفاعل في حين محدود ، ظهرت الحضارة حاملة صفات التفاعل والتطبيق . . .

وهذا يعني أن القيم وحدها دون تطبيق ليست إلاّ ترفاً فكرياً لا يوجد حضارة ، **فالحضارة لا توجد إلا بالتفاعل** .

المفاهيم بين التسوية والانحراف

ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا جعل الإسلام الإيمان به يقيناً في القلب وعملاً تدب فيه الحياة ، ذلك أن الإسلام أراد من أول يوم أن يوجد الفعل الحضاري الكامل . غير أن هذا التفريق بين مصطلحي الحضارة والمبادىء لا يسقط استخدام المقاييس في تقدير الحضارة وتقويمها . . فبقدر ما تكون المفاهيم

صحيحة وسوية وملائمة للإنسان ومعينة له على الممارسة والانفتاح بقدر ما تكون الصورة ، أي التفاعل أي الحضارة ، مشرقة مضيئة ، وبقدر ما تكون المفاهيم مجانية للفطرة الإنسانية بقدر ما تبهت الصورة حتى قد تستحيل إلى ما يشبه اللولكلور أو الكاريكتور .

* * *

الفصل الثاني

الحضارة والنظام

الحضارة وعناصرها : وكتعريف واضح لمصطلح الحضارة بمعزل عن خلفيات ومعطيات فكرية ومبدئية يمكن أن نقول :

الحضارة مصطلح يعني تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما ، في مكان معين ، وفي زمن محدود أو أزمان متعاقبة ، ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة . وهذا التعريف يوضح العناصر التالية التي تتكون منها الحضارة .

١) **الإنسان** ، بكلياته ، محور أي حضارة ، وهو صاحب التفاعل بما يملك من أنشطة وقدرات عقلية وجسدية وروحية توجهها مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة .

٢) **الحضارة تظهر مع الجماعة الإنسانية** ، أي أن الفرد وحده لا يوجد حضارة ، والمجتمع شرط لتواجد الحضارة .

٣) **المكان والبيئة التي** يجري ضمنها التفاعل .

٤) **الزمن** عنصر أساسي في حساب تفاعل الأنشطة وتحسن الوجود الحضاري .

من هنا يمكننا أن نقول :

إن لكل جماعة إنسانية حضارة ، مهما كان مستوى هذه الجماعة الثقافي أو

لكل جماعة إنسانية حضارة ؟؟

العمراني ، ومهما كانت أفكارها وعقائدها . ويبقى الفارق الوحيد بين تلك الحضارات مستويات الأفكار والقيم ذاتها .

وعلى هذا ، يمكننا أن نصف الجماعات المستغرقة في البداوة بالجماعة ذي الحضارة ، كما يمكننا أن نصف الجماعات اليونانية والفرنسية والاسطورية والبابلية والفرعونية وأهل الغرب الرأسمالي وأهل الشرق الشيوعي . . . بالجماعات المتحضرة . . . وإن كانت تلك الأمم أو لا تزال تؤمن بنظريات ومبادىء يثبت العلم والواقع المتجدد فضلاً عن الإسلام ، مدى مجانبتها للفطرة الإنسانية وانحرافها بها نحو متاهات الظلم والضياع والدمار . . .

إن البطل في المعتقدات لايسقط عن ممارستها حركة التفاعل ، وبالتالي مصطلح الحضارة .

* * *

وعلى ضوء هذا التعريف لمصطلح الحضارة ، وعلى ضوء المفاهيم الإسلامية وتصوراتها ـ للكون والإنسان والحياة ـ والتي استعرضناها في الصفحات السابقة ـ يمكننا تحديد وتعريف الحضارة الإسلامية فنقول :

تعريف الحضارة الإسلامية :

هي تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة الموحدة « خلافة الله في الأرض ، عبر الزمن ، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والأكوان . »

ويجمع هذا التعريف بين مصطلح الحضارة العام وبين المفاهيم الإسلامية المكونة (لصفة الحضارة) كما يظهر فاعلية الإنسان ضمن الجماعة المسلمة التي تتفاعل بدورها مع مختلف الكائنات المحيطة بها (إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وعوالم) من أجل إقامة حكم الله في الأرض . .

ثم إن هذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الإسلامية المتعددة ، والتي بدأت مع فجر التاريخ ، عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم ، حتى الحلقة الأوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبي محمد ﷺ وما تبعه من تفاعلات وأحداث .

وهكذا تغدو الحضارة الإسلامية الحضارة العالمية ، فليس عندها عقدة تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب (المرسل إليهم) تجاه أي شعب ، وتقبل في عضويتها العالم بأسره ، أسوده وأصفره وأبيضه ، عربه وعجمه وأوروبيه وامريكيه ، وتعمل لخدمة الإنسان وإسعاده ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به في وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد واحد وفي تسبيح أصيل لخالق الوجود كله .

* * *

ضوابط الحضارة :

وباعتبار أن الحضارة ممارسة لمجموعة المبادىء والمفاهيم عن الحياة في مكان معين وفي زمن أوفى أزمان ، وتفاعل الإنسان بالأكوان المحيطة به ، من أجل سعادة هذا الكائن البشري ، وفق تصوره الايديولوجي الخاص ، فقد وجب على (مجموعة المبادىء والمفاهيم) هذه أن تعالج المشكلات المتواجدة في عناصر الحضارة الأساسية ، فتواجهها بضوابط تكون من جهة قادرة على (حل تلك المشكلات) ومن جهة أخرى على المحافظة على مسار الحضارة التصاعدي .

إن الضوابط الحضارية هذه لا تستعار بل هي دائمة ، تنبع من مجموعة التصورات التي هي خلفيات الحضارة . . . وبقدر عمق هذه الضوابط بقدر ما تستطيع الحضارة مواجهة التحديات والتغلب عليها .

إن الحضارة التي تفتقد تلك الضوابط هي ، بلا ريب ، حضارة حملت في

طياتها سبب اندثارها وزوالها وتلاشيها ، ذلك أنها عدمت أسباب الحياة والتصاعد والارتقاء .

وتتلخص هذه الضوابط بالعناوين التالية :

١) العقيدة وتوجهاتها الأساسية الفكرية والروحية والأخلاقية .
٢) الأنظمة والمبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .
٣) الدولة مفهوماً ومقومات .
٤) القيادة المتفتحة .
٥) اللغة الذاتية المبدعة .

الحضارة وذاتية الضوابط :

وباعتبار أن هذه الضوابط لا يمكن أن تتجانس إلا إذا خرجت من مصدر واحد ، بحيث تتأمن الوحدة فيما بينها والانسجام . . . وهما شرطان أساسيان لتفاعل هذه الضوابط فيما بينها تأميناً لمسار الحضارة . . . أدركنا سراً من أسرار أفول واندثار كثير من الحضارات القديمة التي لم تكن تملك أكثر هذه الضوابط .

فهي ـ أي الحضارات ـ عاشت بالقدر الذي امتلكت فيه ضابطاً أو أكثر . واجهت به المشكلات الحضارية المتفجرة . . . حتى غلبتها تلك المشكلات فاندثرت وزالت ، ولولا معالمها الأثرية من حجر ومقولات لما تحسسها العالم من بعدها ، كما أن مفهوم الضوابط هذا يفسر لنا رجرجة الحضارة الغربية المسيحية اليوم وصرخات الاستغاثة التي تطلقها .

وقد حاولت الحضارة الغربية ، منذ عصر النهضة ، في أوروبا ، من إيجاد هذه الضوابط ومن محاولة تأمين الوحدة والانسجام بين الضوابط المصطنعة تلك أملاً في إضفاء السرمدية أو الاستمرارية على حضارة الغرب وإطلاق عبارة : (الحضارة المثلى) عليها لأنها ـ على حد تعبير ارنولد توينبي ـ (متصلة بالشرارة الإلَهية الخلاقة) .

محاولة ردم الفجوات في الحضارة الغربية :

وقد انكبت النخبة الطليعية في أوروبا ، وعبر عصور متلاحقة ، على محاولة ردم الفجوات في جدار الحضارة المكون للضوابط ، فاتخذوا من تراث الإغريق والرومان مصادر عطاءاتهم وطوروها عبر نظريات ومكونات ، منها ما هو ديني مستجد ، ومنها ما هو بنتيجة النظر والعقل الإنساني ، ومنها ما هو تلبية لاحتياجات الانسان الثابتة ، فكانت الأفكار والفلسفات التي تعالج الإنسان والكون والحياة مع ما تحمل تلك التصورات والمفاهيم من تناقضات وتطلعات ، فاستقرت الحياة الغربية على أنماط خاصة من التفكير شمل مختلف جوانب الوجود الحضاري ، موحداً الضوابط الحضارية ، محاولاً بها مد سيطرة فكره وأسلوبه وأنماطه إلى مختلف حضارات الدنيا ، في جدية واضحة ، وضمن إرادة دثر تلك المعالم ، ملزماً العالم على هضم معطياته وتصوراته ، آملاً من وراء ذلك أن يكون استقرار ضوابطه وامتدادها إيحاء بخلود حضارته وبجدارتها أن تكون وحيدة وعالمية .

ذلك هو ملخص سريع لأفكار أرنولد توينبي وهانز كوهن في كتاباتهم حول الحضارة الغربية . . .

وهناك فارق كبير بين أن تكون الضوابط مصطنعة من مجموعة أفكار ومعطيات متضاربة لا وحدة فيها ولا ترابط ، وبين أن تكون ذاتية انبعثت عن المبادىء ذاتها ، بل هي العقيدة إياها ، أي إن الحضارة انبثقت ومعها ضوابطها المختلفة ، فلا هي تصنعتها او اصطنعتها ، ولا هي استعارتها أو استعانت بمصدريات أخرى كي ترسم لنفسها معالم حدودها وضوابطها .

الإسلام امتلك ذاتية الضوابط الحضارية :

والإسلام هو وحده بين سائر الأديان والأفكار والتصورات الذي امتلك ذاتية الضوابط ووحدتها وانسجامها بشكل يدعو إلى تأكيد عظمة هذا الدين ، وإلى منحه وحده عبارة الحضارة المثلى لاتصاله وحده بالشرارة الإلَهية الخلاقة ـ

على حد تعبير توينبي ـ فلا غرو في ذلك و ﴿ إنّ الدينَ عندَ الله الإسلام ﴾ و﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دِينكمْ وأتممتُ عليكمْ نِعمتي ورَضيتُ لكمُ الإسلامَ دِيناً ﴾ .

المفهوم الآلي للحضارة :

وبناء على ما تقدم يتبين أن الحضارة أكبر وأضخم من المفهوم الآلي للحضارة ، ذلك المفهوم الذي ارتبط في أذهان الكثير فاختلطت الأمور عندهم حتى بات العلم والتقدم والرقي في وسائل الانتاج أو التكنولوجيا عنواناً على الحضارة الأصيلة . . .

إن الارتباط المصيري بين التكنولوجيا وبين أصالة الحضارة مفهوم خاطىء يحتاج إلى تقويم وتصحيح . . فقد تكون أمة من الأمم متحضرة أو تملك مقومات الحضارة السليمة ، ومع ذلك فهي ليست متقدمة علمياً ، والعكس هو صحيح ، أي إن أمة من الأمم قد تملك العلم امتلاكاً وقد يخرج من مختبراتها اختراعاً واكتشافاً إلا أن محاكمتها إلى مقياس الحضارة الأصيلة تسقط عنها كثيراً من الاعتبارات الحضارية . . .

مقياس الحضارة يحاكم لحضارات:

ومقياس الحضارة يحتم دوماً تواجد السعادة والاستقرار ، والأمن والأمان ، والكفاية والرفاه للإنسان . . . وتلك الخصائص لا يوفرها العلم ولا التكنولوجيا لوحدهما . . . بل قد يكونان سبباً في الشقاء والعذاب ، والقلق والحيرة والارتباك . . . إذا ما أسيء فهمهما أو استخدامهما في الغاية المطلوبة « تحقيق ذاتية » الإنسان في الوجود . . . أما إذا استخدمت التكنولوجيا الإنسان لغاياتها هي . . . غدت « الحضارة » ممسوخة مزيفة ، ظلاً متهافتاً بما في هذا الظل من ظلام وعدم رؤية وتضارب خطوط . . . وذاك هو واقع

راجع في تفصيل موضوع الحضارة كتابنا (مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية) حيث تجد نظرة حول الحضارة مفهوماً ورسالة وضوابط وتحديات ، كما تجد النظرية الإسلامية لعطاء الدولة والحضارة وتوقفها عن العطاء . . .

حضارة الغرب . . . والعوالم التابعة له اليوم . . . فالإنسان « الغربي » هناك يعطي التكنولوجيا كل ما يملك : قلبه وروحه وأعصابه ظناً منه أن تلك هي الحضارة .

* * *

ولا يسعنا هنا إلا أن نورد دليلاً من الغرب ، وهذا الدليل نسوقه من كتاب (الإنسان ذلك المجهول) لمؤلفه الكسيس كاريل حيث يقول :

حضارة الغرب صدرت عن جهل بطبيعة الإنسان :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا » [١]

ويقول في موضوع تأثير الحضارة الصناعية على « الإنسان الغربي » :

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية ، إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال . . وقد اتسع نظامها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم » [٢] .

* * *

---

(١) صفحة ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

لا ندعو إلى إهمال العلم ونتاجه إنما إلى تحديد مكانه من الإنسان والحياة

وما أثبتناه ، لا يشكل دعوة إلى التخلي عن العلم وثمراته ، أو إلى التوقف عن الاكتشاف والاختراع ، أو إلى إهمال تحسين التكنولوجيا والتقدم العلمي ، وإلى الجمود على حد من الإبداع في الإنتاج المادي، فهذا كله غير وارد في منهج التصور الإسلامي . . إذ أن الإنتاج المادي وما فيه من إبداع ورفاه، ضرورةملحة لحياةهذا الإنسان ولاستمرار نموه، ودليل سريع على قيام هذا الإنسان المستخلف ، بواجبات الخلافة . . إنما الذي عنيناه أن يكون هذا الإبداع بكل مدلولاته في خدمة الإنسان ، فتلك هي إرادة الخالق الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه . . ومن مستلزمات الخدمة أن تتجاوز خصائص الإنسان فلا تناقضها أو لا تحتقرها ، فكيف إذا جعلت دور الإنسان في هذه الأرض دوراً ثانوياً أو تابعاً للإبداع المادي كما هو الحال في حضارة القرن العشرين .

ولو أن الإنسان الغربي فهم هذا المعنى لما سمعنا من أبنائه من يتكلم بحرقة عن مصيره في ظل هذه الحضارة المادية وعن مصيرها هي ذاتها .

الانهيار في الحضارة المادية أوحى إلى المفكرين ضرورة إيجاد فكرة أخرى للتقدم قائمة على سيادة الإنسان :

فقد ذكر الدكتور كاريل في مقدمة كتابه[1] أنه كتب هذا المؤلف لأولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا ـ ليس فقط ضرورة إحداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية ـ بل أيضاً ، ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أقرب للتقدم البشري .

وينعي الكاتب الروماني الشهير قسطنطين جورجيو في قصته (الساعة الخامسة والعشرون) المدنية الغربية : الأوروبية والأميركية والروسية ، ويعلن إفلاس هذه الحضارة الآلية في تقويم الحياة الانسانية بعد أن فقدت كل مقومات الحياة ، ويرنو ببصره من بعد إلى أمة ذات أصالة تتفهم الواقع البشري ، وتتقدم لإنقاذ البشرية بفكرة أقرب للتقدم كما قال كاريل ـ تنقذ بها

(1) الإنسان ذلك المجهول ص .

الإنسان الحضارة الصناعية من وهدة الشقاء ومن حظيرة العبودية لآلة صماء نكداء ، وهو في تطلعه هذا يحدد أبعاد الفكرة الجديدة التي ستنبثق منها حضارة جديدة فيؤكد قيامها على سيادة الإنسان في الأرض ، وتحرره من ربقة الآلة وكل منجزات الحضارة الغربية ، واستخدامه لها بكونها وسيلة لغاية سامية وهي ـ كما أسلفنا ـ تحقيق ذاتية إنسانية عليا .

ولندع كونستانتان جورجيو يقول (إن هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك من آسيا ولكن ليس من روسيا . إن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الإشراف . سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي ، وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت ، ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع الآلي الغربي . إنه لن يضيء بنور (النيون) خطوط القلب والفكر . إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي .

إذن ، لا إهمال للإنتاج المادي ، ولا للتكنولوجيا ، ولا للتقدم الصناعي ، إنما فقط ، ربط هذا الإنتاج بمركزية فكرية سليمة ، بتصور سليم ، بمعطيات سليمة .

المنهج الرباني يدعو إلى استخدام الكون وإلى ربط العلم بنظام للحياة هابط من الله :

إن المنهج الرباني لا ينكر استخدام الكون بما فيه من طاقات ، بل يطلبه ويوجبه ، فهذه سنة مؤكدة لا مناص منها ولا مهرب ، إنما يرفع الإسلام النكير عندما تعطي قلبك لهذا الإنتاج ، وعندما تجعل التقدم الصناعي في قلبك لا في يدك ، أو كما قال جورجيو : أن ترفع له المعابد والصوامع وتضيء القلب والفكر بخطوط (النيون) والذرة . . و . . . الخ .

هذا المعنى الدقيق العميق في الفهم الحضاري هو ما أشار إليه القرآن وهو يحكي مواجهة نبي الله هود لحضارة (عاد) المادية الصناعية الهائلة فقال ﴿ أتبنونَ بكلِّ ريعٍ آيةً تعبثون وتتخذونَ مصانعَ لعلّكم تخلدُون وإذا بطشتم بطشتم جبّارين فاتّقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون . أمدّكم بأنعام وبنينَ وجناتٍ وعيونٍ إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾[1] .

فهود ، في مواجهته ، لم يرفع المعول ليهدم صرح الصناعات والعلوم ، ولم يدعُ إلى الانفصال عن تقدم مادي أحرزوه للإنقاذ ، بل راح يدعو إلى ربط هذا التقدم العلمي واستخدام خيرات الأرض بالغاية الصحيحة التي خُلِقَ من أجلها هذا الإنسان ، وإلى « ضبط » هذا الربط ليكفل عدم الجنوح والخروج ، وعدم المعاودة إلى التصور الجاهلي القديم ﴿ فاتّقوا الله وأطيعونِ ﴾ وإلا فالمصير أسود مخيف . . عذاب يوم عظيم . .

هذه المجابهة بكل أبعادها ومعالمها ، وبكل مقوماتها وأسسها ، هي التي نحتاجها اليوم ، إذا ما أردنا تلافي تدمير البشرية وتحقيق حفظ التقدم العلمي وحفظ السيادة الإنسانية ، ولا يكون ذلك إلا في « ربط » الإبداع المادي الغربي بالتصور الإسلامي السليم عن الكون والإنسان والحياة « وضبط » هذا « الربط » بنظام للحياة لكل معالم الحياة ؛ للاقتصاد والسياسة والحكم والاجتماع ، مستقى من مصدر هذا التصور ، من الله سبحانه . . هذا « الربط » هو الذي يحقق لنا وللوجود البشري ، مرة أخرى ، حضارة صحيحة تستحق عن جدارة لفظ حضارة .

إن عملية ضبط الحياة في نظام منسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الإنسان هو أدق من الربط نفسه ، فالنظام مسؤول عن استمرار الربط ومنع الانحراف ، ومسؤول عن بقاء الناس في الخط المستقيم ، وعن

(١) الآيات ١٢٧ ـ ١٣٥ من سورة الشعراء .

تأصيل أبعاد التصور فيهم وفي أجيالهم الصاعدة ، وأيضاً هو مسؤول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعاً على أمر واحد وعلى نهج واحد وعلى حضارة واحدة .

إذن للنظام خطر كبير ، فهو صورة الفكر ، وهو الواقع التطبيقي للنظرية ، ولا حياة للتصور دون تطبيق ، ولا جدوى منه دون تنفيذ . والنظام ، بقدر ما يكون عميقاً في الواقع بقدر ما تظهر آثار التصور واضحة جلية ، وأي انحراف في النظام أو في نهجه أو في تطبيقه يصيب مقتلاً من التصور ويحجب إشعاعه في الوجود . .

ولا يمكن أن تستقيم حياة مجموعة من الناس إلا عندما تكون أنظمتهم في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، في الأسرة والحي والدولة ، نابعةً من تصورهم للكون والإنسان والحياة . . ولا يمكن أن يوجد الانسجام بين الناس وبين أنظمتهم إلا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : تعارف يضرب بجذوره إلى الأعماق .

إن الإنسان السوي ليرفض التجزئيةبين حياتية :الفكرية والواقعية ، فهو لا يقبل ، أو ليس من مصلحته أن يقبل ، خضوعه لاتجاهات عديدة . فاتجاه يحكم قلبه ، وآخر عقله ، وثالث حياته الاجتماعية ، ورابع حياته السياسية ، وخامس حياته الاقتصادية ، وسادس ، وسابع الخ . . فذلك يخلق التمزق في أعماقه وحياته ، التمزق الذي لن ينتج عنه إلا القلق والاضطراب والفوضى ، وبالتالي الانهيار الكامل . . .

ماركس يبرر انفصاله عن الدين :

لقد كتب ماركس في تبريره الانعزال والانفصال عن الدين أنه ـ أي الدين ـ يسبب التمزع في الشخصية الإنسانية ، والدليل على ذلك أن الدين أي (المسيحية) ـ أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ .

فغدا الإنسان في رأي ماركس وبناء على التصور المسيحي ، متمزعاً في

شخصيته الإنسانية ، حائراً بين (ما لقيصر) و(ما لله فهو خاضع في حياته الشخصية والخلقية للقيم الدينية ، وخاضع في جوانب حياته الأخرى لقواعد الحكم السياسي وللأنظمة القانونية التي وضعها الإنسان بنفسه وبيديه . . .

فمثلاً،الإنسان في حالة الاعتداء عليه يكون في حالة متناقضة ، فالقيم الدينيةتأمره بالغفران والتذلل «مَن لطمكَ على خدكَ الأيمن فحوِّل له الأيسر» والقوانين البشرية تخوله الاقتصاص والتعويض ، فبأي الاتجاهين يأخذ ؟ إن استجاب لهاتف الدين ضاعت حقوقه وكتبت الذلة عليه ، وان استجاب لنداء فطرته في دفع الأذى والاقتصاص وفق القانون يكون قد خالف الدين ، وهكذا يقع هذا الإنسان فريسة للتمزع ؟؟؟

هذا التبرير وإن أصاب به ماركس بالنسبة للدين المسيحي المنفصل عن الحياة العامة ، إلاّ أنه لايصدق إزاء الإسلام العظيم . . فالإسلام منع وجود التمزع أصلاً بإيجاده نظاماً للحياة متكاملاً منبثقاً عن تصوره السليم . وبالنسبة للمثل الذي ضربه ماركس ـ الآنف الذكر ـ فإن الآية التالية ترينا كيف عالج الإسلام هذا الإشكال ببساطة وهدوء تامين ﴿ وجزاءُ سيئة سيئةٌ مثلُها فمَنْ عفَا وأصلحَ فأجرُه على الله ﴾ . فمن أراد مبادلة السيئة بأخرى فهاكه نظام يضمن الحقوق ويكفل التنفيذ[1] . ومن أراد الصفح والعفو فهذا

(١) ذكر الدكتور سعيد رمضان في مقال له في مجلة المسلمون ـ المجلد الخامس ـ العدد السادس سنة ٩٥٦ صفحة ٥٢٩ أنه لما كان في أميركا حدثه أستاذ كبير في علم الاجتماع بعد محاضرة ألقاها هناك وتحدث فيها عن العدالة الاجتماعية في الإسلام فقال له : « إذا صح أن الذي ذكرته الليلة موجود في الإسلام فإنك تكون قد ساهمت إسهاماً كبيراً في معالجة عقدة عميقة في نفسي » قلت له كيف ؟ فقال : « إن الذي وصلت إليه بعد كل دراساتي في الاجتماع جعلني أؤمن أن الجنس البشري ضعيف لا يؤتمن على نفسه ، محدود تجعله حدوده يتعثر ويتغير ويهدم ما بناه . ومقتضى العدالة الإلٰهية إذا كان لهذا الكون إلٰه ان يتدخل ليضع للذين خلقهم حدوداً تهديهم أمام شهواتهم العارمة ، وجهلهم المركب وقد أصبحت أعتقد أن هذا التدخل ضروري يفرضه العدل والرحمة بهذا الإنسان الضعيف ، فلما أطلعته في لقاء آخر على ترجمات لبعض آيات قرآنية وأحاديث فغرفاه في دهشة بالغة ، وأحسست بزلزال عجيب في نفسه ، فتأمل ؟؟ .

شأنه وله ذلك ، ما لم يمس بهما النظام العام .

النظام وليد الفكرة : فالنظام ينبع من فكرة الأمة من مبادئها في الكون والحياة . . فكما أنه لا يمكن تطبيق نظام الحكم الشيوعي مثلاً في أمريكا أو نظام الحكم الأميركي في روسيا (بواقعهما الراهنين ودون تغيرات أساسية في الأفكار والمؤسسات) كذلك يستحيل ـ دون تصادم ودون صراع وألم ـ تطبيق أي نظام في أرض لا تمده بأسباب الحياة . . لا يمكن مثلاً أن نقول بنظام ديمقراطي غربي أو شرقي و نظام اقتصادي شيوعي أو رأسمالي ، وأن ننادي في الوقت نفسه بالتمسك بالقيم الدينية الإسلامية . . فهذا تناقض فاضح مرفوض شكلاً وموضوعاً ، وذلك لاختلاف النظرة إلى الكون والحياة .

والأنظمة تنبع من الفكرة . . فهي التي توجد الأنظمة وتنسفها وترفضها . وليس العكس بصحيح ، بمعنى أن النظام لا يخلق الفكرة ، النظام يحافظ على الفكرة ، يدافع عنها ، لكنه لا يوجدها .

* * *

الإنسان مشكلة الحضارة الكبرى : إن عناصر « الحضارة كما يقول الأستاذ مالك بن نبي[1] أو مشكلتها تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان ، ومشكلة التراب ، ومشكلة الوقت ، فلكي تقوم حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات ، وإنما بأن تحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها .

ولا ريب أن الإنسان هو العنصرُ الأهم ، فهو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب ، أو هو الذي يملك الاستفادة من الكون في زمن محدود أو حد معلوم .

(١) كتا شروط النهضة ومشلاكت الحضارة صفحة ٤٨ ـ ٤٩ ، وراجع في موضوع الحضارة (مقدمات في فهم الحضارة) للمؤلف .

فمشكلة الإنسان هي المشكلة الكبرى في الحضارة ، فإذا أدركنا توجيهه نكون قد وجهنا كل شيء ، وجهنا الوقت والتراب وبالتالي صنعنا الحضارة .

ولقد تحدثنا في الفصل السابق عن جوانب من المشكلة الإنسانية . . وهنا في هذا الفصل ، وانسجاماً مع مضمونه العام لا بد من تبسيط جوانب أخرى من المشكلة .

الانسان ـ على الزمن ـ واحد لم يتغير فهو بحاجة الى تصور ثابت :

الإنسان منذ وجوده الأول وحتى نهايته واحد ذو خصائص واحدة ، ومقومات واحدة . فلا يختلف أي إنسان عن أي إنسان آخر في أي زمان ومكان . . الإنسان بالحس والشعور ، بالطبائع والروح ، بالأشواق والضرورات ، بالآمال والآلام ، ولا عبرة بعد ذلك ولا قيمة لشكل الثياب أو المسكن أو المركب ، فلو أن هذا الكائن سكن الخيمة أو القصر ، البادية أو المدينة ، البحر أو الجبل ، أو لبس من ألوان الثياب ما لبس أو ركب ـ كدابة له ـ جملاً أو قطاراً أو طائرة أو أي شيء آخر فإنه سيبقى إنساناً بخصائصه وأعماقه . فقيمة الإنسان في جوهره لا في مظهره ، ومهما كان للمظهر في أشكال الحياة من أثر فإنه لا يتجاوز دائرة ضيقة تبقى بعدها الخصائص الإنسانية ثابتة لا تتغير .

وإذا استقرأنا التاريخ[1] ودرسنا الإنسان في كل عصر من العصور لوجدناه ـ كما ذكرنا ـ ثابتاً في الخصائص والمقومات .

إن هذا الثبات في الكينونة البشرية للإنسان بحاجة إلى ثبات في المنهج ، أو إلى حضارة تضرب بجذورها إلى معطيات ثابتة ، إلى تصور ثابت لا يعرف الجمود ، أو كما قيل ـ تصور له حركة ضمن إطار ومحور ثابت » .

(١) قصص الأنبياء مع أقوامهم أصدق تفسير في هذا الصدد .

إن الإسلام وحده من بين جميع الأفكار القديمة والحديثة يملك معنيات البناء الحضاري في هذا الوجود ، فهو قد منح المؤمنين به فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة متسقة دون تصادم ، عميقة دون تعقد ، واضحة دون أي لبس أو غشاوة . وهكذا غدت معالم الحياة والذات الإنسانية والكون العجيب مكشوفة جلية .

ولم يكتف الإسلام بهذا الوضوح الأيدلوجي . . فأمد إنسان هذه الحياة ، بأنظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة ، وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم ، ومن أجل ذلك كانت الأنظمة الإسلامية في كل ما دق من الحياة وما عظم . .

نظمة الاسلام صدرت عن معرفة أصلية بالاساس فهي ثابتة متطورة :

إن أنظمة الإسلام الحياتية شاملة لكافة نشاطات الإنسان . . فيكاد لا يوجد أو الأصح لا يوجد مرفق من المرافق الحياتية إلا وللإسلام فيه رأي وتوجيه أو ضبط وتنظيم ، فمن الغرائز الإنسانية ، إلى الأسرة ، إلى المجتمع ، إلى الدولة ، إلى الحكم ، والاقتصاد ، والقضاء ، إلى الحرب والسلم ، إلى كل شيء . ﴿ إنّ هذا القرآنَ يهدي للتي هيَ أَقْوَمُ ﴾[1] .

وهذه الأنظمة وضعت بناء لمعرفة أصيلة بحاجات الإنسان وإمكانية تطور هذه الحاجات عبر الزمن . فهي لم تهمل عنصر المرونة في خصائصها ومقوماتها ، بل جعلتها قاعدة انطلقت منها فوافقت بذلك « حاجة التكيف » وفق مقتضيات الزمن .

إلا أن هذا لا يعني أن أنظمة الإسلام متطورة ، تتكيف مع الواقع أياً كان دونما اعتبار لأصل ثابت فيها . إذ أن هذا يعني أن الواقع يفرض ذاته على الإسلام فيطوره . وهذا ما لا يقبله الإسلام بل نرى الإسلام يعمل بكل ما فيه

(١) الآية ١٧ من سورة الإسراء

من تصور ونظام لتطوير الواقع حسب منهجه وأبعاده .

إن الإنسان ، كما ذكرنا ، ثابت من حيث الجوهر ، ثابت في الكينونة ، في الخصائص والمقومات . فالذي يتطور ، فيه وفي حياته ، الأشكال ، الصور ، المظهر ، أي جزئيات في التركيب العام ، ومن هنا فهو بحاجة ـ كما أسلفنا ـ إلى منهج ثابت في الخصائص والمقومات لكنه مرن ، يتطور مع الشكل ، يتحرك في الصورة ، أما المضمون ، أما الجوهر فهو ثابت راسخ لا يتغير .

إن الأنظمة الإسلامية ، بوجه عام ، ثابتة تضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج ولا تعديل ولا تبديل ، إلا أنها أيضاً مرنة فيما تبقى من القضايا القابلة للتطور والتغيير في الأشكال المفروض فيها أن تتكيف في واقع أو ظرف معين .

وبهذا تكون الأنظمة الإسلامية ـ وحدها خلافاً لسائر أنظمة الأرض ـ قد جمعت الثبات في الأسس ، والمرونة في التكيف ، أي أنها جاءت منسجمة مع التركيب الإنساني ، ثبات في الجوهر وتغير سلبي في المظهر ، وبذلك غدت ـ بلا ريب ـ أقدر النظم على حمل أعباء الحياة الإنسانية .

إن الإنسان ـ في أي زمان ومكان ـ يستطيع بسهولة الاعتماد على الأنظمة الإسلامية الحياتية أو بعبارة أصح أن يسلم لها فتمده هذه وبصورة دائمة بأسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان .

والأنظمة الإسلا[مية] موحدة للتوجيه والتشريع :

وليس من قبيل الصدفة ، وقد ربط الإسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والإنسان وبوظيفة هذا الإنسان في الوجود ، أن يأتي القرآن بقواعد التشريع ، وبمبادىء أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع في طيات آيات التوجيه ، وكأن ذلك إشارة ربانية خالدة إلى ضرورة إحكام الصلة بين التوجيه والتشريع . ولعل آية الشورى خير مثل في هذا الصدد ، فالآية تقول :
﴿ والَّذينَ استَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفقون ﴾[١] فقاعدة الحكم الأساسية ، نظام الشورى كله ، قد جاء بوضوح تام ، مرتبطاً بالتوجيه ، أو أن التوجيه قد جاء متلاحماً مع التشريع الشوري .

إن هذا المعنى الدقيق ليؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس ، وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما ، ومما لا شك فيه أن الفصام النكد الذي جرى بين هذين المعلمين الكبيرين في دنيا الناس كان نتيجة لظروف سيئة مرت بها الإنسانية المعذبة ولا تزال .

إن تلاحم الأنظمة بالفكرة المطلقة عن الكون والإنسان والحياة يوجد الانسجام المطلق بين الإنسان والحياة ، ويدفع هذا الإنسان، بقوة وعمق وبصيرة ، للقيام بدوره الخلاق المبدع في خلافة الله ، عند ذلك يكون التفجير الحضاري تعبيراً عن عمق الارتباط بين الإنسان والحياة . ويتعاظم هذا الارتباط ويشتد كلما أدرك الإنسان مبتغاه حيث السعادة والاطمئنان .

شهادة من عاش الشرود عن منهج الله قديماً وحديثاً :

إن الإنسانية متى شردت عن منهج الله وشرعه لن ترتقي لتصل إلى مقياس الحضارة الأصيلة ، لأنها في أعماقها شقية بائسة قلقة ، تتخبط ولا تهتدي إلى السبيل ، يقول « ول ديورانت » الكاتب الأميركي في كتابه« مناهج الفلسفة [٢] » :

وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء في الآلات ، فقراء في الأرض ، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ، ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب ، إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط ، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلمية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبدد

(١) الآية ٣٨ من سورة الشورى .

(٢) كتاب مناهج الفلسفة ترجمة مؤسسة فرانكلين الجزء الأول صفحة ٦ ـ ٧ .

تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات ، إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ، ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الإجماعي للحرب ، وعندنا مئة ألف سياسي وليس عندنا « رجل حكم » واحد ، إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف أين نذهب ولم نفكّر في ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة ، إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة .

وأوروبا وأمريكا قلق وانتحار :

وإن كان القتل والانتحار وسيلة التخلص من القلق والضياع في الماضي السحيق فقد تعمقت هذه الظاهرة الخطرة حتى غدت أحد أبرز سمات الحضارة العصرية الغربية .

فقد أشارت الإحصائيات الدولية إلى أن ما يزيد عن ١٠٠٠ شخص ينتحرون يومياً في العالم أجمع ، وأن عدد الذين يحاولون الانتحار يبلغ حوالي ١٠ آلاف شخص في اليوم الواحد .

ويعد الانتحار من أعقد وأخطر المشاكل التي يعاني منها الناس ، وتحتل الولايات المتحدة رأس القائمة بين الدول التي تسجل فيها نسبة الانتحار أعلى معدلاتها ، ففي عام **١٩٧٧** بلغ عدد الذين انتحروا في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الامريكية **٢٧٠٦٣** شخصاً . وتحتل اليابان المركز الثاني بمعدل **١٩٧٨٦** شخصاً . والمانيا الغربية **١٢٩٠٠** شخص ، وفرنسا **٨١٩٩** شخصاً . والمجر **٤٣٠٧** أشخاص .

ظاهرة خطيرة لأنها في تزايد مستمر ، وخاصة بين أوساط الشباب .

كما نشرت مجلة « التايم » الأمريكية تحقيقاً صحفياً يكشف عن أن جميع أفراد العائلة الأمريكية بمن فيهم الطلاب يذهبون إلى الطبيب النفسي للعلاج .

لأن الشعب الأمريكي لم يعد يطيق مثل هذه الحياة . . »[١] .

* * *

هذه شهادة من « غربي » وفقط يعيش وطأة الشرود عن منهج الله ، ويرسم لنا بصدق حال الحضارة الغربية السائدة في الأرض ، ويرينا القلق والحيرة لفقدان التصور السليم ولانعدام الربط بين الفكرة وبين النظام ، (ليس عندنا رجل حكم واحد) وإن الإنسانية ـ الشاردة عن الحضارة الحقة ـ تقذف بنفسها إلى الانتحار .

قصيدة من العهد البابلي تجعل الانتحار الوسيلة الوحيدة للتخلص من الضياع :

وليس ببعيد عن هذا المعنى ما تكشفه لنا قصيدة في نهاية العهد البابلي فترينا أيضاً تخبط الإنسانية ـ في ذلك الزمن ـ عندما فقدت مقومات الحياة وشردت عن منهج الله .

ومن خلال القصيدة نرى الشاعر يرسم لنا صورة عن الضياع والتشتت او البؤس والقلق ، فهو يبتغي السعادة إلا أنه لا يجدها في المرأة ، ولا في الثراء ، ولا في التعبد لأله عاجز ناقص ، ولا في الاستبداد ، فإذا ما تضخم عنده الضياع وجد سبيلاً لحسم الحياة : القتل والانتحار[٢] .

---

(١) عن الأخبار الإيطالية نقلا عن مجلة أورسيو الإيطالية ١٣/ ٥/ ٧٩ .

(٢) الألف الثاني قبل الميلاد ـ وهذه القصيدة نقلناها من كتاب « الإنسان والحضارة » تأليف يوسف الحوراني وقد أثبتها في الصفحات ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤٢ بعد أن قدم لها بقوله : (ولعل أصدق من عبر بعمق عن هذه الحالة ، حالة الضياع والقلق الإنسانيتين ، كان كاتباً مجهولاً نقلت إلينا نصوصه ألواح الطين ، التي تعود إلى فترة النزع البابلي قبل أن تتسلّم الحضارة الأصيلة أيدي الآشوريين القساة ، هو حوار بين عبد وسيده ، ينطبق على حالة كل مجتمع بلغ شيخوخته ، وهو حالة أثرياء المدنية الغربية في يومنا هذا) وقد أشار الأستاذ حوراني إلى أنه نقل القصيدة من كتاب (ما قبل الفلسفة) الذي بدوره نقلها عن (لاتفدن) أو الحكمة البابلية ، وهذه هي القصيدة :

قال السيد لعبده :

وافق معي أيها العبد :

نعم يا سيدي نعم « أجاب العبد »

تلك هي قصة الحضارات الزائفة ، وهي قصة واحدة لا تختلف فصولها ولا أحداثها ، لأن الإنسان فيها إنسان واحد على الزمن ، فقد المنهج فارتكس في ضياع قتال . وبالحقيقة هي قصة تخلف واحد لأنها حجبت إنسان الحياة عن أي نور يتطلع به إلى خالقه ونفسه وكونه وآلهته باندفاع جنوني مخيف نحو عربدة علمية يُضيعُ فيها ذاته .

السيد : سأحب امرأة

العبد : أحب يا سيدي أحب « فالرجل الذي يحب امرأة ينسى العوز والبؤس »

السيد : لا أيها العبد سوف لا أحب امرأة .

العبد : لا تحب يا سيدي لا تحب ، فالمرأة مصيدة وفخ وشبكة ، المرأة سيف حديدي حاد ، مسلط ، معد لقطع رقبة الشباب .

وافق معي أيها العبد وافق :

العبد : نعم يا سيدي نعم .

السيد أحضر لي حالاً ماء ليدي ، أحضره إلى هنا فسأقدم فريضة لإلهي .

العبد : قدم يا سيدي قدم ، فالرجل الذي يقدم فريضة لإلهه يطمئن قلبه ، ويزيد ذخراً على ذخر .

السيد : لا أيها العبد سوف لا أقدم فريضة لإلهي .

العبد لا تقدم يا سيدي لا تقدم، عود الإله أن يجري خلفك كالكلب ولما يسأل أين خدمتي ؟ أجبه أنك لم تطلب ، وافعل شيئاً آخر

وافق معي أيها العبد وافق

العبد : افعل ذلك يا سيدي افعل ، فالرجل الذي يقدم هبات لمزارعيه تكون هباته وكأنها وضعت في كف الإله مردوخ نفسه .

السيد : لا أيها العبد ، سوف لا أعطي هبات لمزارعي

العبد : لا تعط يا سيدي فاصعد فوق خرائب المدن القديمة ، وتجول حولها ، تأمل في جماجم المتقدمين والمتأخرين ، فمن هو صانع الخير منهم ؟ ومن هو صانع الشر ؟

وافق معي أيها العبد :

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : والآن ما هو الصالح ؟ أن أدق عنقك وأدق عنقي بعدك وتسقط في النهر ، ذاك هو الصالح .

العبد : من تراه طال حتى وصل السماء ، ومن بلغت ضخامته حتى يحتضن الأرض .

السيد : لا أيها العبد ، سأقتلك أنت فقط وأجعلك تسبقني .

العبد : وهل يريد سيدي أن يعيش لثلاثة أيام بعدي ؟

إلا أننا في نهاية هذا الفصل نحب أن نؤكد حقيقة ـ أسلفنا سابقاً ـ إن هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية كما يقول جورجيو : (لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط ، لقد فتنهم جمال علوم الجماد ، إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ـ وهي قوانين أكثر غموضاً وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدينية ـ كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ولأترابهم أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية ، وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا ا المادية لم تلبث أن تزول وتتلاشى)[1] .

إن طريق الإنقاذ طريق واحد واضح جلي ، أعني : ربط الإنتاج المادي بتصور سليم متين عن الكون والإنسان والحياة ، وضبط هذا الربط بأنظمة مستمدة من مصدر هذا التصور ، وجعل هذه الأنظمة بيد (رجال حكم) لا هواة سياسة . أو بمعنى آخر : إقامة حكم الإسلام من جديد ، أي العودة الصحيحة إلى طريق الله .

---

(١) الكسيس كاريل ص ١٠-١١ .

الفصل الثالث

مَفهُوم الدَّولة في الإسْلام

إن غاية الأنظمة الإسلامية كما ذكرنا « ضبط الارتباط » بالله بحانه بحيث تغدو الحياة ـ بكل صورها ومعالمها ومؤسساتها ـ منصبغة بالصبغة الربانية ﴿ ومَنْ أحسنُ مِنَ الله صبغة ﴾ سالكة أهدى السبل ﴿ إن هذا القرآنَ يَهدي للّتي هِي أَقوم ﴾[1] ومحققة في الوجود أعظم أمة ﴿ كنتم خيرَ أُمّة أُخرجتْ للناس ﴾[2]

انبثقت الدولة من ضمير الشرع لضبط تصرفات الناس في الاتجاه الذي ارتضوه لأنفسهم :

ومن هذه الغاية الكبرى للانظة ، ينبثق مفهوم الإسلام للدولة ، فهي ليست أداة للقهر والإكراه ، وليست وسيلة لتحقيق نفوذ طبقة على أخرى ، كما أنها لا تخضع للعوامل والمؤثرات المادية : من أدوات إنتاج إلى إنتاج ، ومن إرادة فرد أو أفراد ، إنما هي لضبط تصرفات الناس في الاتجاه الذي ارتضوه لأنفسهم فهم قد ارتضوا الإسلام ديناً وشرعة ومنهاجاً فلا بد نتيجة لذلك من ضابط يشرف على هذا الرضى ، ويسعى جاهداً لتنفيذ عقده ، بكل دقة وإخلاص . وذلك الضابط هو الدولة ، فالدولة إذن أداة لتجسيد رغبات الناس المؤمنين ، كل الناس ، ووسيلة لزيادة النمو والتقدم في مختلف جوانب حياتهم . ومن أجل هذا كانت الدولة أحد الضوابط الخمسة لإقامة الحضارة الإسلامية ولعطائها بفيض لا ينقطع . . . [3] .

ولا بد من الإشارة [4] هنا إلى أن هذا الضابط ، أي الدولة ، وهو في

---

(١) الآية ١٧ سورة الإسراء

(٢) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٣) راجع كتابنا (مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية)

(٤) ونرجىء التفصيل إلى القسم الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

طريقه لتجسيد الرغبات لا يهتم من حيث المبدأ بإرادات فردية أو حتى جماعية إن خالفت المصدر الذي أوجده . . . فهو ، أي الضباط ، غير مدين في وجوده إلى طبقة من الطبقات ، أو فئة من الفئات ، أو عصبية من العصبيات ، أو إلى إنتاج ووسائل إنتاج ؟ فهو قد انبثق من صميم هذا الشرع الذي آمن به : المصلي في محرابه ، والزوج في بيته ، والفرد في مجتمعه . . وليس لأحد من هؤلاء فضل يد في إيجاد هذا الضابط بل قد جاء هو متفضلاً عليهم في ضبط تصرفاتهم وتنمية قدراتهم والسير بها إلى الله . ومن هنا ليس لأي كان ، أي حق تجاه الدولة ، يراه لنفسه ، إلا ما أوجبه الشرع وما أقره ، وليس للدولة أية سلطة أو أي حق ، تجاه الأفراد إلا ما حددته الشريعة ، ومن هنا ليس بين الفرد وبين الدولة عقد مباشر كما ذهب إليه روسو وكثير من المفكرين ، إنما العقد بين الفرد وبين الله سبحانه . فالإنسان بدخوله في الإسلام وبإيمانه بعقيدة لا إله إلاّ الله . وقد ارتبط الإنسان بعقد له شروط وموجبات ومواصفات . . وله أيضاً بدل تكفل الله به في الدنيا وفي الآخرة ، فمن شروط العقد وموجباته أن يأتي الإنسان الله مؤمناً من أعماقه ، معترفاً بألوهيته وحاكميته ، خاضعاً لكل أمر أو نهي يصدر عنه ، وبدل هذا العقد الذي تعهد به الله سبحانه وتعالى منهج حياة يضيء للإنسان الطريق في الدنيا ويرشده إلى أصول تجمعه وإلى ضابط هذا التجمع وغاياته وحدوده ومنذ أن خلق الله آدم ، ويوصله بطمأنينة وهناء إلى الآخرة .

ليس بين الفرد والدولة عقد مباشر إنما العقد بين الله والفرد ، والدولة وسيط :

وقد تم هذا التعاقد فعلاً بين الله والإنسان في فترات من التاريخ ، ثم جدد بقوة وحزم في عهد النبوة الأخيرة ، فتجلى إعطاء الله سبحانه واضحاً بهياً ناصعاً في شريعة الإسلام ، تصوراً للإنسان والكون والحياة ، ومنهجاً سليماً في الواقع والسلوك . .

وجاء أمر الله موجباً ، وجود ضابط للإشراف على هذا العقد ، للمساعدة على تنفيذه ، ولتنميته على الزمن ، فكانت الدولة .

فالدولة إذن ، شخص ثالث يختلف عن الله ـ تبارك وتعالى ـ وعن الإنسان ، وليس بينهما وبين الإنسان أي عقد مباشر .

من أجل هذا قلنا : ليس للدولة أو للأفراد أن يطالبوا بحقوق لم يوجبها الشرع .

وبناء على هذا الوصف نقول : ليس للفرد الذي دخل الإسلام أو داره أن يرفض ولاية أو سلطة الدولة ، وليس له أيضاً أن ينفصل عنها ويقبل بسلطة أخرى . وليس للدولة أيضاً أن تسقط رعايتها أو ضبطها لفرد من الأفراد ، أو تتخلى عن موجباتها إزاءهم طالما أن هؤلاء متمسكون بعقودهم وهي قائمة على شرعة الله .

* * *

وقد أوجد الشرع ـ كعلاقة متميزة بين الرعية والراعي ـ عقد البيعة الذي تعطيه الرعية أو من يمثلها للحاكم الأول . . .

عقد البيعة يوجد الحاكم ويسميه ولا توجد الدولة :

وعقد البيعة هذا عقد متميز عن سائر العقود ، فهو وإن شابه عقد الوكالة من جانب إلا أنه يختلف عنه من جوانب ، فبالبيعة تنعقد ولاية الحاكم ويلتزم الطرفان ببنودها التي تقوم على التزام القائد بمنهج الإسلام ودستوره ومبادئه ، وعلى التزام القاعدة بالطاعة له والإيجابية معه . . .

ونظرية البيعة هذه التي تقوم على أساس التعاقد بين السلطة والمحكومين أوقعت كثيراً من الإسلاميين في شبهة التماثل بينها وبين العقد الاجتماعي الذي ظهر في أوروبا ، فقالوا خطأ : إن الدولة في الإسلام أوجدها تعاقد المسلمين على إنشاء دولتهم . . . والحقيقة أن المسلمين ، في عقد البيعة ، لم يتعاقدوا على إنشاء الدولة وإنما تعاقدوا على إقامة الحاكم وتسميته . . . وهناك

فرق كبير بين الاثنين[1] والدولة أنشئت بموجب نصوص قرانية . . . لا بإجماع المسلمين ، تلك النصوص التي لا تقبل التعديل أو التبديل . . . وبمجرد أن يسلم المرء يرتبط حكماً بالنصوص ، ويخضع بالتالي لنظرية الدولة دون أن يتعاقد مع الآخرين ، والمفهوم الاسلامي هذا يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم الدولة الدينية التي تعتمد الحق الإلهي أساساً لها . . .

بين المفهوم الإسلامي والحق الإلهي :

فالحق الإلهي سلطان يدعيه الحاكم بنفسه سواء كان ملكاً أو رجل دين[2] ليحكم كيفما يريد دون حدود ولا ضوابط إلا مصلحته . . . بينما المفهوم الإسلامي يجعل من الدولة أداة ضبط وارتباط بين الرعية والراعي من جانب ، وبينهما وبين الله سبحانه جل وعلا من جهة أخرى . . ضمن قواعد ومبادىء وعقائد شرعها الله سبحانه لا يملك لا القائد ولا القاعدة حق إبطالها أو تعديلها أو تغييرها . . .

* * *

الدولة في أوروبا :

إن فكرة العقد المتبادل بين الفرد والحاكم أو بين الشعب والدولة فكرة قد نشأت في أوروبا في ظروف وملابسات معينة ، وهي على هذا الأساس نمط من فلسفة الحكم مختلف من حيث الشكل والمضمون مع معطيات نظام الحكم في الإسلام . (وسنعرض لهذا الأمر تفصيلاً في القسم الرابع من هذه السلسلة إن شاء الله مع مسألة الحق الإلهي المزعومة) .

---

(١) مناقشة التفصيلات في القسم الثالث من السلسلة .

(٢) المذاهب الشيعية أعطت الأئمة حقاً فوق حقوق الحكام في المذاهب السنية ، فهي فضلاً عن ربطها الحكم بهم دون سواهم وهم الأئمة الاثنا عشر من ذرية الإمام علي . . . فقد منحتهم العصمة والتشريع ، وجعلت أقوالهم أحكاماً واجبة الاتباع ، فاقتربت بذلك ـ من هذه الوجهة ـ من مفهوم الدولة الدينية الأوروبية . وسنتعرض لتفصيل ذلك ومناقشته في القسم الرابع من هذه السلسلة إن شاء الله تعالى .

فمن مقتضيات فكرة التعاقد المباشر (منها المذاهب السياسية في الحكم وخاصة الديمقراطية) أن تساير الدولة إرادة الشعب وإرادة أغلبيته ، فهي مدينة بوجودها لهم ، وهم تعاقدوا معها لتسيير شؤون حياتهم وفق ما يملون عليها ، لذلك فليس لها الحق أن ترفض ما يريدون أو يريد أغلبيتهم أو ما يريد البعض الذي يسير الآخرين .

إن هذه المسايرة ـ كما نرى في مجتمعات الدنيا ـ تخلق جواً من النفعية والأنانية وربما الاستبداد ، وتخضع أداة الضبط إلى فئة من المستغلين النفعيين مما يجعل هذه الأداة ، كما يزعم الكثير أداة للقهر والإكراه ، الأمر الذي يفسح المجال للماركسية اللينينية أن تقول : إن الدولة مظهر من مظاهر تنازع الطبقات ووجودها دليل عى وجود الطبقات المتصارعة ، وهي بذلك ستؤول إلى التحطم والملاشاة الكاملة ؟ .

* * *

الدولة في الإسلام تخضع للشرع لا للشعب :

إن المفهوم الاسلامي للدولة يحررها من الخضوع لإرادات البشر ، فهي لم تنبثق عنهم لا بوحيهم ، وبالتالي لا تسير على أهوائهم ومنواهم ، ووفق كثرتهم أو إجماعهم ، وإنما تخضع بكل مفاهيمها وقيمها ونظراتها إلى المنهج الذي أوجدها والشرعة التي حتمتها .

وعندما يتأصل هذا الفهم في نفوس الناس من أن الدولة ليست من عندهم إنما هي من عند الله ، يشعرون من أعماقهم بقيمة هذا الضابط في تصريف شؤونهم والسير بهم نحو الله ، ويدركون بكينونتهم ، وبكل ما فيهم ، ضرورة تذليل كل صعب أمامه ، والمحافظة على وجوده ، فهو لهم وليس عليهم ضدهم ، يعمل لمصلحتهم ويعينهم لتنفيذ العقد مع الله ولايصال البدل منه سبحانه وتعالى .

وهكذا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله والناس . . ومن أجل هذا كانت

الدولة لله وللناس . فالله سبحانه لا يعطي البدل إلا عبر الدولة . والناس لا يستطيعون تنفيذ العقد إلا من خلال الدولة ، ومن هنا تغدو الدولة في الإسلام ضرورة كبرى ، وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها .

وفي سبيل القيام بهذا الدور الخطير تملك الدولة من الأنظمة والشرائع ما يحقق لها غرضها بكل بساطة ويسر . . ولعل أهم ما تملكه في هذا الصدد ، التصور السليم عند الناس : تصورهم عن الإنسان والكون والحياة ، وتصورهم عنها وعن غايتها وعن دورها في الوجود ، وبوحي هذا التصور تلمس الدولة عند الناس إيجابية في الطاعة والانضباط ، فتسوسهم بسياسة الله ، وتحقق فيهم وبهم الخلافة في الأرض بكل معناها ومبناها .

سلطة الدولة تنقذ المنحرفين :

إن شعور المسلمين نحو الدولة بمنهاجها وشرعتها ، شعور بناء مهيب منتج . فليست الأنظمة للاستبداد والطغيان ، وليست لظلم طبقة لحساب أخرى ، وإنما هي وسائل الضبط التي يملكها الضابط بإذن الله . فالسوط الذي ترفعه الدولة إزاء المنحرف عن منهج الله مجرماً كان أو عاصياً أو محتكراً هو البلسم الشافي . يتقبله المنحرفون بضمير مبكت مؤنب . وأكثر من ذلك فإن هذا السوط يصير عند هؤلاء الذين سقطوا في لحظة من لحظات الضعف البشري أحب إليهم من التستر والنجاة والحياة ، فتراهم يسرعون بالاعلان عن انحرافهم ، طالبين إنزال العقوبة بهم ، ملتمسين بذلك سبيل العودة إلى المنهج الذي فرطوا فيه !

إننا لا نملك إزاء الحوادث العديدة[1] التي وقعت في صدر الإسلام إلا

(١) عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله طهرني ، فقال ؛ ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرني ، فقال ﷺ مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنى . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر بأنه ليس بمجنون فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر ، فقال : أزنيت ؟ قال نعم ، فأمر به فرجم . . ثم جاءته امرأة حامل من الأزفقالت : يا رسول =

تفسيراً واحدا هو سلامة وعمق التصور عند هذه الطليعة المباركة ، التصور لكل مجالات الوجود : للإنسان والكون والحياة ، وللدولة والنظام ، وللحاكم والعقاب . .

وما هو جدير بالاعتبار أن هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل ، بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة ورجال لا يزالون في بداوتهم، غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات إلى ما وراء أفق الأرض ، فتجلت لهم آيات في أنفسهم ، وتراءت لهم أنوارها في الآفاق .

نعم إنه لمن الغريب أن يتحول هؤلاء البسطاء ذوو الحياة الراكدة عندما مستهم شرارة الروح إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم خلافة الحضارة الجديدة وأن يندفعوا بروحها وثبة واحدة إلى تلك القمة الخلقية الرفيعة ، ثم ما لبثت أن انتشرت في حياة فكرية واسعة متجددة[1] .

* * *

= الله طهرني . فقال : ويحك !! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه فقالت : أتريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك انها حبلى من الزنى . فقال : أنت ؟ قالت : نعم : اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي في ده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها . .) مسلم والنسائي . وقصة الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ولم يخرجوا معه إلى الجهاد بل بقوا في المدينة عن قصد وعمد تنبئنا بالمعنى الدقيق الذي أشرنا إليه ، ونراه بوضوح في حديث كعب ابن مالك ، أحد المخلفين من رواية الامام أحد إذا قال : (فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضر بثي وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟! وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه . . فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ فقلت يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك) . ويبدأ العقاب بنهي المسلمين عن محادثة ومكالمة الثلاثة المتخلفين مما اضطرهم إلى الاعتزال، ثم أمر الثلاثة بأن يجتنبوا زوجاتهم ، ويستمر ذلك خمسين يوماً . فتأمل . .

(١) مالك بن نبي « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » ص ٥٧ - ٥٨ .

ولا بد أن تتجسد الدولة في إقليم معين ، ومجموعة من البشر . . إلا أن هذا لا يفرض علينا نوعاً من الأرض وصنفاً من البشر ، ذلك أن الإسلام في نظرته الكلية ، يسقط من حيث المبدأ[1] اعتبارات درج الناس عليها في دراستهم لنشوء الدولة وعناصرها . . فليس من شرط الإسلام في الدولة أن تكون في إقليم بذاته ، فقد تكون هنا أو هناك ، في بلدنا أو في بلد سوانا ، في أرض العرب أو أرض العجم ، فالأرض أرض واحدة ، هي لله يورثها عباده الذين اصطفى .

وحيثما ذكر اسم الله في بلد   عددت أرجاءه من لبّ أوطاني

وما يقال عن الأرض يقال أيضاً عن الناس . . فليس شرطاً أن يكونوا من جنس واحد ، فكلهم بشر ، ويمكن أن يتعايشوا فيما بينهم ، في ظل العقيدة والنظام ، وضمن التصور والانضباط ، فلا فضل لجنس على آخر إلا بانصهاره في بوتقة الإسلام ، فالعربي مسلم ، والعجمي مسلم . . وكلهم عند الله سواء . .

إذن ، فالاعتبارات المادية في بناء الدولة ليس لها قيمة بذاتها إذ يمكن تجاوزها إلى سواها . . أو هي بالأحرى اعتبارات شكلية يسهل معها التغيير والتبديل ، بل ربما الإسقاط الكلي أو الجزئي . .

إن العقيدة هي المحور الأساسي في دولة الإسلام ، هي العنصر الأهم أو هي الأصل . . وما دونها ثانوي يذوي أمام تماسك الفكرة وأصالتها في أعماق أهل هذه الدولة .

من أجل هذا قسم الفقهاء العالم إلى دارين لا ثالث لهما : دار الإسلام ،

(١) تفصيل ذلك والتعليق عليه في فصل الوحدة من القسم الرابع من هذا الكتاب .

ودار الجاهلية[1] ففي الأولى تظهر شريعة الإسلام خفاقة عالية ، وفي الثانية يبرز الانحراف والبعد عن منهج الله في الحياة . .[2] .

* * *

عقوبة الانحراف تعطيل لدور الدولة في تجسيد عطاء الله :

ولله في كلا الدارين سنة لا تتخلف ولن تجد لها تبديلاً . . . فقد وعد الذين آمنوا بالنصر والتمكين في الأرض والبقاء والامتداد ما داموا على المنهج الذي رسم لهم . . . ﴿ الذينَ إنْ مكنّاهم في الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوْا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور ﴾[3] .

أما إذا انحرفوا فتجري عليهم سنة القرى ﴿ وإنْ من قريةٍ إلاّ نحنُ مهلِكوها قبلَ يومِ القيامةِ أو معذِّبوها عذاباً شديداً كانَ ذلك في الكتابِ مسطوراً ﴾[4] .

إن عقوبة الانحراف عن منهج الله عقوبة كبرى ، قد تتجاوز عقوبة أولئك الذين لم يتفيأوا ظلال العقيدة الكبرى . . . فالذين عرفوا ثم كفروا ، الذين استضاءت قلوبهم بالنور ثم أظلموها بالطاغوت ، هؤلاء شر مكاناً وأظلم الناس دون جدال ، فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله . . . ونكلوا عن العقد الذي أبرموه مع الله ، وعطلوا في أنفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله . . . فليس عجيباً بعد ذلك أن يتعطل دور الدولة في الوساطة ، وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله . .

(١) الأصل دار الإسلام ودار الحرب ، ونفضل استخدام الجاهلية بدل الحرب فهي أعمق في الدلالة .
(٢) انظر تفصيل هذا البحث في القسم الثاني من هذا الكتاب الذي سيصدر بعد هذا القسم ان شاء الله .
(٣) الآية (٤٠) من سورة الحج .
(٤) الآية (٥٩) من الإسراء .

وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ، ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة . . . فكأن الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازياً أبداً مع منهج الله . . . فإذا ما تمثل الإسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكاً وتشريعاً أدرك الناس الثواب في نهاية الخط المتعالي ، وإذا ما تخلوا عن شريعة الله هبطوا هبوطاً بشعاً فأصابهم العقاب : الطرف الثاني من الخط الأبدي ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ليس الانحراف أو الهرم جزءاً محتوماً في حياة الدولة :

وليس الانحراف والضعف أو الهرم حتماً مقضياً في الأمة ، أو جزءاً لا يتجزأ من حياتها كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين ومنهم ابن خلدون (في العصر الطبيعي للدولة) ومالك بن نبي (في الدورة الخالدة) والماركسية اللينينية في (تنازع الطبقات) .

فابن خلدون جعل للدولة عمراً طبيعياً كعمر الأفراد ، وحدده بثلاثة أجيال تقارب المئة والعشرين ، ولها أطوار خمسة تتدرج من القوة إلى الضعف فالقنوع والتبذير فالذبول [1] .

وأما مالك بن نبي فقد كتب تحت عنوان (الدورة الخالدة) مرَدِّداً مع نتشه قوله (إنه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه كما تعيد الشمس دورتها من نقطة الانقلاب) . كتب يقول[2] :

« من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دوراً وتسلسلاً ، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة ، هو تارة أخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها إلى نومها العميق » ثم يضرب المثل على ذلك بالحضارة الإسلامية التي بدأت

---

(١) راجع مقدمة معركةيبن خلدون ص ١٤٦ الفصل السابع عشر (أطوار الدولة) .

(٢) مالك بن نبي شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ٥١ .

من غار حراء بومضة روحية هائلة ، ثم توسعت وانتشرت فوق سطح الأرض مستفيدة من جاذبية الروح و« العقل » ، حتى إذا ما تخلت عنهما وجدناها تخلد إلى الأرض مغلبة جاذبية الأرض عليها[1] .

أما الماركسية اللينينية ، فقد ذهبت في تفسيرها الاقتصادي إلى قريب من هذه المعاني ، ومن وجهة نظرها ، فكلما تقدم الإنتاج وتطورت أدواته تعاظم الصراع الطبقي بين الطبقتين الموجودتين في عصر من العصور فتغلب الطبقة المضطهدة الطبقة الأخرى ، ثم تنشأ بحكم التطور وتطور أدوات الإنتاج ، طبقة ثالثة تختلف عن الطبقتين الأوليتين فتقاوم فتغلب وهكذا . . . حتى تصل إلى ديكتاتورية البروليتاريا التي هي طبقة أخيرة - في سلم الطبقات عبر الزمن - فتنتزع هذه الطبقة - الدولة - أداة القسر والإكراه ، من أيدي الرأسماليين لتتركها بعد ذلك تتحطم وتزول [2] .

إن هذا التحتم المطلق في عمر طبيعي أو دورة خالدة أو تنازع الطبقات ولو ارتدى حلة تاريخية [3] ، إلا أنه يظهر أمام التحليل الإسلامي للدولة عارياً من أية حجة منطقية معقولة !!

الدولة في الإسلام نمو وتصاعد :

إن الدولة - في الإسلام - تنمو وتنمو أبداً ، تتصاعد في خط واحد نحو العلاء متجاوزة كل الصعاب ، كل المحن والمشكلات . . مجددة دوماً قواها بحيث لا ترى عليها أمارات ضعف أو هوان .

الدولة - من حيث المبدأ - لا تعرف التلكؤ فالجمود فالتأخر . . بل هي

---

(١) المرجع السابق الصفحات ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ .

(٢) راجع بحث الدولة للينين .

(٣) لا بد لنا من الإشارة إلى أن التحليل الماركسي لتصارع الطبقات هو تحليل سطحي ولم ينظر إلى المشكلة من جميع نواحيها الاقتصادية والسياسية والفكرية ، بل اقتصر على العامل الاقتصادي فقط ، وعلاوة على ذلك فإن تاريخ الصراع هذا على افتراض صحته هو تاريخ أوروبا وليس تاريخنا ، ولا يصدق في قليل أو كثير على بلادنا ذات التاريخ الخاص . . .

دائماً منطلقة إلى الله لتحقق في الأرض الرسالة التي انتدب إليها الإنسان « الخلافة الكبرى » . .

هذه الحتمية هي الأصل في بناء الدولة ، ومن أجل ذلك جاء الإسلام بشرائعه ونظمه . . فهو لم يأت لزمن قصير مئة سنة أو أكثر أو أقل ـ كما حدث فعلاً في التاريخ ، إنما جاء ليحكم البشرية كلها حتى تستقيم على أمر الله دائماً في كل زمان ومكان .

فإذا ما تخلى المسلمون في عصر من العصور عن وظيفتهم الكبرى في الوجود ، فتوقفت الدولة عن النمو والعطاء ، وأسلمتهم إلى ضعفهم البشري ، فيكون هذا انحرافاً عن الأصل ويبقى انحرافاً ، ولا يمكن أن ينقلب إلى أصل وإلى حتمية ، مهما تكرر في التاريخ ، ومهما تأكد على الزمن .

إن الانحراف أمر طارىء على الدولة وعلى تصاعدها ، وهو بهذا المعنى شذوذ وظلم . . فإذا ما وقع فلا بد من دفع الثمن ، مهما غلا وعظم ، فقد يكون في التلاشي والانحطاط ، وقد يكون في تدمير الإنسانية . . فهي سنة . . وهي حتمية . . لكنها سنة انحراف وحتمية ثمن .

دعوة القرآن إلى دراسة شأن الأمم الغابرة

القرآن يحدد سنة لا تبديل فيها :

من أجل هذا دعا القرآن الناس للتفكر في سنن الله في الأمم والشعوب دعاهم إلى تدبر ما أصاب اولئك وما طرأ على حياتهم ، كيف نشأوا وكيف تطوروا ، ثم كيف ظلموا وكيف دمروا ؟

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحصيدٌ. وما ظلمناهم ولكن ظَلَموا أنفسهم فما أغنتْ عنهم آلهتهم التي يدعونَ مِن دونِ الله من شيء لما جاء أمرُ ربِّك وما زادوهم غيرَ تتبيبٍ .وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذَ القرى وهي ظالمة إن أخذَه أليمٌ شديدٌ﴾ [1] .

(١) الآيات ١٠١ ـ ١٠٣ من سورة هود .

إن هذه الدعوى القرآنية دعوة هادفة أصيلة لتلمس أسباب الانحراف ثم لاجتثاثها من الجذور كلما بدت في أفق الحياة الجديدة . . ولو أن الأولين ممن انحرفوا عن دولة الإسلام اعتبروا بسنن القرى لبقيت دولتهم خفاقة تنضح الناس بخيرات الأرض والسماء .

وبيّن القرآن سنن الله في الدولة ، سننه في استقامتها ، وسننه في انحرافها ببيان معجز جلي فيقول :

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلاّ أخذنا أهلَها بالبأساءِ والضرّاءِ لعلَّهم يضرعون . ثم بدّلنا مكانَ السيئةِ الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءَنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون . ولو أنّ أهلَ القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ ولكنْ كذّبوا فأخذناهم بما كانو يكسِبون . أفأَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهمْ بأسُنا بياتاً وهم نائمون . أو أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكرَ الله فلا يأمنُ مكرَ الله إلاّ القومُ الخاسرون . أو لم يهدِ للذين يرثونَ الأرضَ من بعدِ أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهمْ ونطبعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ .

﴿ تلك القرى نقصُّ عليكَ من أنبائها ولقد جاءتهمْ رسُلُهم بالبيِّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبلُ كذلكَ يطبعُ الله على قلوبِ الكافرينَ وما وجَدْنا لأكثرهم مِن عهد وإن وجدنا أكثرَهم لفاسقين ﴾ [1] .

وما أروع القرآن ﴿ ولو أنّ أهلَ القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ فبكل وضوح وتأكيد وحتمية (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بركات في كل شيء : في أنفسهم ، في وجودهم ، في دولتهم ، في حضارتهم ، في

(١) الآيات من ٩٣ الى ١٠١ من سورة الأعراف .

إنتاجهم ، بركات لا تنقطع . . ولا تنغلق . . بل دائماً في فيض . . وفي استمرار . . وعطاء . . مفتوحة على مصراعيها ، تعطي دون حساب ، وتمد الناس بأسباب الحياة . . وتطلقهم بفطرتهم في خط الحضارة التصاعدي .

للتصاعد شرط هو عدم الانحراف :

إن الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله ، بإيمان سليم في أعماق القلوب ، وبتقوى أصيلة في أعماق الحياء .

الشرط هو الاستمرار وعدم الانحراف . . الامتناع عن سبل الذين ظلموا أنفسهم والوجود . . فإذا ما تخلف الشرط هوت الأمة في ضريبة الحساب ، ووقعت في مخلب السنن ﴿ وما ظلمناهم ولكنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظلمون ﴾ .

فالأصل ، إذن ، تصاعد الدولة بخط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا تكسر ولا انحناء ، وأن أي انحراف في الخط يحدث على الزمن فرصة هائلة يؤدي في النهاية إلى التدمير ﴿ وإذا أردنا أن نُهْلك قريةً أمرنا مترَفِيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً ﴾ [1] .

وكأني بابن خلدون ومالك بن نبي قد لحظا ـ بصورة مضطربة غير واضحة ـ هذه الحتمية الأصيلة لتصاعد الدولة ، فقد أشار الأول إلى ضرورة (حمل الكافة أي كافة الناس) على شريعة الله إذا ما أردنا أن نتجنب مساوىء الملك الطبيعي والسياسي . إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أصل العصبية وتقرر الوجهة إلى الحق ، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب منا ومنهم وهم مستميتون عليه [2] .

---

(١) الآية (٥) الإسراء قال المفسرون في قوله تعالى (أمرنا مترفيها) أمرناهم بالطاعات ففسقوا !
(٢) المقدمة ١٣٢ .

أما مالك بن نبي فقد قال تعقيباً على منحنى السقوط في الحضارة الإسلامية ، وهو الخط الذي تلاحظ العقل ، الخط الأفقي المتصل بخط التصاعد الروحي « ذاك هو منحى السقوط الذي تخلفه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح! والعقل ، وطالما أن الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل ، المؤدية إلى الحضارة ونموها ، فإن هذه العوامل النفسية تخترق بطريقة ما ، فيما وراء الشعور ، وفي الحالة التي تنكمش فيهاتأثيرات الروح والعقل تنطلق غرائز الدنيا من عقالها لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية » [1] .

وهنا لا بد لي من تأكيد الحقيقة التالية :

يجب أن ندرس الانحراف على أنه انحراف :

إن دراسة حالات الانحراف في الأمم والشعوب ـ على أنها حالات حتمية أو لا يمكن أن تكون دولة دون أن تمر بأطوار معينة أو بدورة ميتة [2] ؟ أو بتصارع الطبقة ـ دراسة مخيفة لها معقبات سيئة في التصور والواقع .

إن الانحراف لا يدرس إلا بعد دراسة الاستقامة كما أن المرض لا يعرف إلا بعد معرفة الصحة . وكل منهج غير هذا منهج منحرف يعالج الانحراف بالانحراف . . . والانحراف لن يكون في كل حال إلا انحرافاً . .

علينا ألا نستحضر « الواقع » المنحرف لنستمد منه التصور والسنن . . إذ أن هذا الاستحضار يرتب في أعماقنا فساداً في التصور يوردنا موارد التهلكة ويجعلنا نخبط في التيه بلا دليل على حد تعبير سيد قطب ، إنما علينا أن نواجه « الحقيقة » مواجهة تلق وتطلع ، وعندئذ نستطيع أن نرى بوضوح تام خط

---

(١) شروط النهضة ص ٥٩ .
(٢) نعتقد أن لفظ « ميتة » أصدق في الدلالة من لفظ « خالدة » فالخلود في الأصل الصمود الذي لا دورة فيه ، أما الانحراف عن الخطر فهو ينشىء دورة لكنه يبقى انحرافاً عن الأصل يميت ، والانحراف لا خلود فيه . . . فالخلود يبقى مع الأصل ، مع الصعود .

الانحراف الآخذ من الخط الصاعد . . وسوى تلك المواجهة تعطل علينا الرؤيا إذ أنها تجعل في صميم الانحراف كالذي يسير وهو مغمض العينين لا يرى سواء السبيل .

إن دراسة الدولة بداية ونهاية ، حضارة وأثراً ، يجب أن تنبثق من المفهوم الصحيح للدولة وللحضارة . . وبعدها تدرس حالات الانحراف ، على أنها انحراف لا على أنها مظهر حتمي للدولة ، أو حالة عادية كانت وستكون ولن تتخلف أبداً .

والدولة بالإسلام أحد أبرز الضوابط الحضارية التي تمتعت بها الحضارة الإسلامية بذاتية رائعة . وعندما تنعدم تلك الدولة أو ينحرف فيها التنفيذ تتوقف الحضارة عن العطاء ، وتبقى الحضارة كذلك حتى تتجمع كافة ضوابطها وفي مقدمتها الدولة ، فتستأنف عطاءها في بركات من السماء والأرض [1] .

وستبقى قضية الدولة وإقامتها أهم مطلب إسلامي . . . فإيجادها فرض أخطر وأهم من كل الفروض ، وبدون الدولة لا أمن ولا عدل ولا طمأنينة في حياة المسلمين وفي العالم . . .

---

(١) راجع كتابنا عن (مقومات في فهم الحضارة الإسلامية) .

الفصل الرابع

كيف أقام الإسلام دولته

أدركنا من الفصول السابقة ، من طبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة ، ومن ضرورة « الضبط » لكافة شؤون الحياة وتسييرها « بأنظمة » هادفة إلى الله سبحانه ، ومن مفهوم الدولة في الإسلام جاء ، من أول يوم عرفته الدنيا يحمل في طيات « اقرأ »[1] ، نواة ، مجتمع وملامح دولة ، وخطة عمل .

لماذا لم يطلب الإسلام الدولة من أول يوم ؟

والسؤال الآن : لماذا لم يفصح الإسلام عن أهدافه من أول يوم ؟ أو لماذا لم ينزل القرآن دفعةً واحدة فيدعو إلى عقيدة ودولة ، إلى توحيد وتنظيم ، إلى منهج وأسلوب ؟؟ خاصة وأن الإسلام واجه بيئة ضائعة ، لا تنظيم فيها ولا سيادة ولا عقيدة ولا سلطة ، إلهها هواها ، ومنهاجها فوضى وأصدق وصف فيها ما قاله أحد أبنائها « جعفر بن أبي طالب » أمام النجاشي ملك الحبشة (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . .)[2] فلو أن القرآن نزل جملة واحدة بنظامه وتشريعه وعقيدته ومنهجه لأدركت تلك البيئة « الضائعة » وجودها ولانقادت إليه بسهولة ويسر دون مقاومة ولا عناد . . أو لتمكن الرسول ﷺ من قبول عرض « المشركين »

---

(1) ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ سورة العلق الآية ٢ .

(2) ابن هشام - سيرة النبي ﷺ مجلد واحد - ص ١٥٣ - طبعة بيروت دار الريحاني .

في تتويجه ملكاً وسيداً فحكم بما أراه الله بالتشريع الإسلامي وبالتنظيم الرباني ، ولقامت دولة الإسلام في أيام معدودات ؟؟ .

ولأول وهلة يُخيل أن مسحة من الحجة تصبغ ظاهر هذه الأسئلة بيد أننا إذا ما دققنا فيها وعرضناها على حقيقة هذا الدين وجدنا فيها من الجهل ما فيها . . ولن نجد جواباً عليها بدقة وإيجاز إلا جواب رسول الله ﷺ على من عرض عليه الملك والسلطة والسيادة .

روى ابن هشام في سيرته (أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذِرُوا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا له :

يا محمد ، إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك ، إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمتَ الآباء ، وعِبْتَ الدين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفَّهتَ الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له ،فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . .

فقال رسول الله ﷺ :

ما بين ما تقولون . . ما جئت بما جئتكم به أطالب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربِّي ونصحت لكم .

فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم[١] ،

فهؤلاء لم يعرفوا بعد حقيقة هذا الدين ، وما عرضوا ما عرضوا جادين . . وإنما للخصام والتضليل . ثم إن غاية الإسلام ليست في الشرف والملك ، بل في الخضوع والاستسلام لله . . فعندما تتحقق الغاية تظهر الدولة كمنحة من الله . . وهذا لن يكون ، إلا في تجمع إسلامي كامل . . وفي مكة لم يكن الخاضعون المستسلمون لمشيئة الله إلا نفراً قليلاً معدوداً ، تجمعاً بسيطاً لم يتكامل بعد . . وأيضاً « إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح . . « وقرآناً فرَقناهُ لتقرأه على الناس على مُكث ونزّلناه تنزيلاً » لم ينزل هذا القرآن جملة ، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة ووفق النمو المطرد في الأفكار ، والنمو المطرد في المجتمع والحياة . . وفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . .[٣] .

« إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض . . إنه منهج يتعامل مع الواقع[٤] .

« لم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة »[٥] .

من أجل هذا . . ما ان انقلب التجمع الحركي البسيط في مكة إلى تجمع كامل في المدينة ، وأعطى هذا التجمع العقد لله في التزام شرعه ونهجه ، حتى انبثقت الدولة من أعماقه بصورة بدل من الله ، وراحت الأنظمة والشرائع تتتالى بنسق بديع فريد . .

(١) ابن هشام - ص ١٣٠ - ١٣١ .
(٢) الاسراء ١٠٦ .
(٣) (٤) (٥) من كتاب معالم في الطريق - سيد قطب الصفحات ١٩ - ٤٣ - ٤٤ .

مما تقدم نرى أن للإسلام نهجاً خاصاً وأسلوباً ذاتياً في إقامة دولته ، قد يختلف عن كل أساليب الأرض أو هو مختلف عنها حتماً . . فلا بد ، ونحن في صدد محاولة جديدة لاستئناف الحياة الإسلامية ، من دراسة النهج والأسلوب ، دراسة عميقة عسى أن نصير إليهما في نهاية المطاف بإذن الله .

* * *

الدعوة وأسلوب التجمع :

بدأ الرسول ﷺ دعوته عندما جاءه الأمر من الله ﴿ يا أيُّها المدثرُ قُمْ فأنذِر وربَّك فكبِّر ﴾ . ومما يروى أنه قال لزوجه خديجة ـ أو كما قال ـ (يا خديجة مَن أدعو ومنَ ذا يستجيب) ؟ لكن الأمر الجديد قد ملك عليه نفسه ، دفعة بقوة ومضاء إلى الاتصال والتحرك ، فآمنت زوجته خديجة ، ثم مولاه زيد بن حارثة . . ثم ابن عمه علي بن أبي طالب . . ثم صديقه أبو بكر بن أبي قحافة ، ثم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ابن عبدالله . ثم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مسلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبي بكر ، وأختها عائشة ، وخباب بن الأرتّ ، وعمار بن ياسر ، وصهيب الرومي[1] .

وهكذا بدأ التجمع العضوي في الظهور ، عناصر شتى من بطون وأفخاذ وقبائل مختلفة . نساء ورجال ، صغار وكبار . فقراء وأغنياء ، أرقاء وأحرار ، وهذا أمر يخالف أبسط قواعد التجمع عند العرب . نما هذا التجمع . . وتكاثر العدد حتى أضحى مجتمعاً ذاتياً يمكن أن نُطلق عليه اسم التجمع الحركي البسيط الذي سرعان ما تحول ـ في الهجرة الكبرى ـ إلى تجمع حركي كامل ، أي مجتمع إسلامي ذي سلطان ودولة .

---

(١) ابن هشام ص ١١١ ـ ١١٢ .

أطوار التجمع :

إن هذا التجمع في أطواره الثلاثة : العضوي ، والحركي ، والكامل ، هو محو رالعمل الإسلامي الصحيح . وهو المنهج الذي اختطه رسول الله ﷺ لتجسيد شرع الله ، فهو ، إذن ، تجمع حركي ، فاعل ، هادف .

ومن الناحية التاريخية : بدأ التجمع العضوي بدعوة الرسول ﷺ زوجته خديجة ، والتجمع البسيط بدخول أعضاء التجمع الأول دار الأرقم ابن أبي الأرقم وبخروجهم منها في إعلان عام وإنباء عن تجمعهم الجديد . وأما التجمع الكامل فبهجرة المسلمين إلى المدينة حيث التقوا مع التجمع الحركي البسيط الذي نشأ هناك بعد التجمع العضوي . فتأمل التجمعان في تجمع واحد في مجتمع واحد .

ومن الناحية الموضوعية : فإن التجمع العضوي هو التجمع الأهم والقاعدة التي ارتفع عليها التجمع البسيط والتجمع الكامل . . فالكامل في القمة يتضمن الحركي والعضوي ، أي أن العضوي يمد دائماً الحركي بعناصر فاعلة « نظفت » نفسها واستسلمت للمشيئة المطلقة ، فيوصلها هذا ـ أي التجمع الحركي ـ بعد التجربة والاختبار إلى التجمع الكامل حيث تنعم بالطمأنينة والاستقرار .

في التجمع العضوي وعي الذات وبدء التحول والانقلاب :

إن أهم صفة في التجمع العضوي أنه تجمع فردي ، أفراده انخلعوا من ربقة الجاهلية ، من البيئة التي يعيشون فيها ، فالتقوا فيما بينهم سراً ، أي دون أن يعرف بلقائهم أحد ، فهم أشبه بالتجمع السري ، ينشط في الخفاء ، ويعمل بعيداً عن مراقبة « الآخرين » .

والحركة بهذا المعنى ، جزء لا يتجزأ من العمل العام ، لذلك فإن التجمع العضوي يبقى مع التجمعين الحركي والكامل ، وإن اتخذ شكلاً وأسلوباً . أي إن الاحتكاك الفردي الذي يسعى إلى الإقناع ، بالمناقشة والحجاج ، بهدم « الماضي » الملوث ، وبناء « الجديد » الطاهر ، هو منهج التجمع ولا يصح

تجمع دونه . . . ولا بد في هذا التجمع من « وعي الذات » بمعنى أن يعطي كل عضو ذاته ، يعي وجوده ، ويقدر الخطوة التي يخطوها إذ أنه مدعو إلى تغيير حركة التاريخ ، ولا بد من دفع الثمن .

وعندما يتكامل هذا التجمع العضوي يدرك ضرورة انقلابه إلى تجمع حركي ينبثق في قلب المجتمع الجاهلي، ويعمل في حركة علنية ، لإشعار المجتمع الجاهلي بوجوده ، وعندما يتم هذا الانقلاب فلا بد ، عندئذ ، من دفع الثمن ، ضريبة الاختبار والتجربة ، وهي بذاتها قوة خاصة دافعة لتكامل التجمع البسيط وتحوله إلى تجمع كامل إلى مجتمع اسلامي .

وهذا ما كان في مكة ، وينطبق أيضاً إلى حد بعيد على عهد المدينة . ففي مكة بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاحتكاك الفردي ، بالحركة العضوية ، بالعمل السري ، فاستجاب له من استجاب ممن ذكرنا .

وما ان توافرت لرسول الله ﷺ هذه العناصر الواعية ، حتى قرر « التجمع » في دار الأرقم بن أبي الأرقم ليقوم بأخطر عمل داخلي ، بتربية وتكوين جماعيين . فهؤلاء الذين هداهم الله به مؤمنون جدد ، حديثو العهد بالاسلام وقريبو الصلة بالجاهلية ، هؤلاء وهم يواجهون محنة مشتركة وبلاء واحداً بحاجة ماسة إلى ترابط تحت سقف واحد يجتمعون فيتباحثون ، يلتقون فيرتشفون من نبع النبوة الإيمان العميق ، والأدب الرصين ، وأسلوب الدعوة الصحيح .

وعكف رسول الله ﷺ في دار الأرقم على تربية وتكوين الطليعة المؤمنة ، واستمر عدد هذه الطليعة في ازدياد حتى بلغ تسعاً وثلاثين . . عندها شعر رسول الله بدنو نهاية مرحلة التخفي ، وأدرك ضرورة الإعلان ومواجهة الناس . . إلا أنه كان ينتظر رجلاً أنيط بإسلامه توقيت مرحلة العلنية (التجمع البسيط) رجلاً يعز به الإسلام فتنتهي مرحلة الاستخفاء .

من أجل هذا . . دعا رسول الله ﷺ ، وسأل ربه - فيما رواه الترمذي - أن يعزّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليه : بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب . وكذلك كان . . فأسلم ابن الخطاب عند أخته ، وانتقل إلى دار الأرقم يجهر بإسلامه ، أمام من ينتظره ، أمام رسول الله .

إعلان التجمع الحركي :

وكان اللقاء الأول . . .

« وكان أن قال عمر : يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا » . فقال ﷺ : بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم « قال عمر : ففيم الاختفاء . . والذي بعثك بالحق لتخرجن »[1] .

في هذه اللحظة الحاسمة ، ولد التجمع البسيط ، العلني ، وأخذ الصراع مع المجتمع الجاهلي شكلاً جديداً شكل التحدي ، وشكل الثبات .

ومع أن الاحتكاك التجمعي كان قاسياً وشديداً فإن التجمع البسيط حاول أن يوجد تجمعات مماثلة هنا وهناك . فكانت الهجرة إلى الحبشة ، والاتصال بالطائف ، وبالقبائل ، وبالوافدين إلى مكة .

وفي المدينة أيضاً تجمع عضوي ، فحركي ، فكامل :

وحملت هذه المحاولات عوامل النجاح . فاستجاب نفر من المدينة لا يتجاوز الستة ، عادوا ليبدأوا التحرك من البدء من التجمع العضوي ، من السرية ، حتى إذا بلغوا سبعين رجلاً أو أكثر انقلبوا إلى تجمع علني . وأتوا رسول الله في مكة معاهدين مبايعين .

(١) من مقال للمؤلف نشر في مجلة المجتمع اللبنانية العدد العاشر السنة الرابعة سنة ١٩٦٥ . ولقد جاء في حاشية السيرة لابن هشام « كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم مستخفياً من قريش بمكة ، يدعو الناس فيها إلى الإسلام ، حتى خرج عنها ، وكانت دار الأرقم بمكة على الصفا ، فأسلم فيها جماعة كثيرة ، وكان رسول الله في الدار حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلماً ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب ، فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا . وجاء في سير أخرى (أن خروجه ﷺ كان في صفين : عمر في أحدهما وحمزة في الآخر) .

وكان لا بد ، وقد تكامل التجمع البسيط في كل من مكة والمدينة ، من تلاحمهما واتصالهما . وبدأت الهجرة ، وتحول التجمع المعلن إلى تجمع كامل ، وأعلن رسول الله ﷺ ميلاد التجمع المسلم ، فخاطب مسلمي مكة أعضاء التنظيم التجمعي (إنّ الله عزّ وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها)[1] .

شروط ومواصفات التجمع :

لكل من هذه التجمعات شروط ومواصفات وخصائص تضفي على كل تجمع قيمة حركية فاعلة مختلفة عن الأخرى . ولو أن كلاً منها حلقة في سلسلة البناء .

فشرط الانتساب للتجمع العضوي الانسلاخ العقيدي عن المجتمع الجاهلي وعن كل أفكاره وتصوراته .

ومواصفات الاندماج في التجمع العلني البسيط التحدي ، ومواجهة المجتمع الجاهلي بالتصور الإسلامي الجديد .

وخصائص الحياة في المجتمع الكامل ، في المجتمع الإسلامي ، الخضوع المطلق لكافة أحكامه وأنظمته وتشريعه .

* * *

التحول إلى الإسلام رافقه نظر وتردد

ولا ريب أن أصعب مرحلة هي مرحلة التجمع العضوي ، فهو نقطة الانطلاق وبوابة التحول الخطر في حياة الإنسان فليس يسيراً ـ على الإنسان ـ من حيث المبدأ ـ أن يتحول عن عادات وتقاليد وأفكار وتصورات إلى عقيدة جديدة ومنهج جديد دون أن يعمق النظر ، ويدرك الأبعاد ، ويراجع رصيده مراراً ، ويدقق في حساباته تكراراً .

---

(١) ابن هشام مجلد واحد ـ دار الريحاني ص ٢٣٦ .

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : (ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلاّ ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكَمَ عنه حين ذكرته له وما تردد فيه[1] .

حتى علي بن أبي طالب ، وهو الصبي الصغير والمكفول من قبل النبي ﷺ استمهل في قبول الدعوة الجديدة . فقد دخل علي فجأة على النبي وخديجة ـ وكانا يصليان ـ فوقف . . دهشاً حتى أتما صلاتهما ثم سأل : لمن تسجدان ؟ فأجابه محمد ﷺ أو كما قال : إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً ، وأمرني أن أدعو الناس إليه . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى دينه الذي بعثه به نبياً ، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى .

« وتلا محمد ما تيسر من القرآن ، فأخذ علي عن نفسه ، وسحره جمال الآيات وإعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه .

ثم قضى ليلته مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأي أبي طالب .

« وقال : لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله[2] .

لا إله إلا الله والانقلاب عند إنسان الجاهلية :

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقدر صعوبة هذه المرحلة من أول يوم جاءه الأمر ببدء الدعوة ، فقد قال ـ أو كما قال : (انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله ، وأن أدعوهم إلى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لي ؟)[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد واحد ص ١١١ والكبوة ـ هنا تخلف وتردد .
(٢) حياة محمد ـ محمد حسنين هيكل ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٣) حياة محمد ـ ص ١٣٦ .

وهذا الأمر جد طبيعي . . فلفظة (لا إله إلاّ الله) التي يطلبها النبي ﷺ من إنسان الجاهلية . . تعني ـ قبل كل شيء ـ انقلاباً جذرياً في أعماقه ، فهي ثورة في مفهوم العبودية والخضوع . . وهي انسلاخ كامل عن قيم المجتمع الذي عاش فيه ، وهي عزلة عقيدية شاملة عن التصورات القديمة مع ما تخلفه من عادات وأساليب ، وهي ـ بعد ذلك كله ـ نقلة حاسمة إلى آفاق جديدة وإلى تطورات جديدة .

وقد أدرك « إنسان الجاهلية » أبعاد هذه الطريق عندما كان يطالب بالتلفظ بلا إله إلا الله . . كشرط للانتساب إلى التجمع العضوي الجديد ، لذلك فقد تردد لكنّه تردد تفكير وتفاعل . . حتى إذا ما أعلنها ، التزم بها التزاماً كلياً حسب منطوقها ومدلولها ووفق مفاهيمها وإيحاءاتها .

فها هو يرفض بقوة وإصرار المجتمع الجاهلي كله بكل ما فيه من قيم وتصورات ، وها هو يخضع بكل أعماقه وقواه إلى التجمع العضوي الجديد ينهل منه منهجاً جديداً يحكمه في كل شؤونه ويلتزم به في كل أموره .

الانفصال عن الماضي عند المسلم الجديد :

« لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . وكان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد .

« كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، نشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائياً عن بيئة الجاهلية ، واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية . وحتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم

التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

« وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيامته الجديدة ، ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته »[1] .

علنية وكشف الهوية والانتماء :

ويأتي بعد التجمع العضوي السري الأولي ، التجمعُ العلني الحركي البسيط ، الذي لم يستكمل بعد أركان التجمع الكامل ، المجتمع الإسلامي .

وقلنا : هذا التجمع الناشىء عن التجمع العضوي والمنبثق في قلب المجتمع الجاهلي لا بد له من التحرك في محاولة مزدوجة : إزالة المجتمع الجاهلي ، وتكامله هو لينقلب إلى مجتمع إسلامي كامل .

والحقيقة أن لهذا التحرك العلني ـ بمعنى الاحتكاك الفعلي مع المجتمع الجاهلي ـ غاية أخرى ضمنية ، أي داخلية ، وهي تعميق تربية وتكوين أعضاء التجمع ، فالعضو الذي استوفى شرطه ، وأعلن لا إله إلا الله من أعماقه ، وانسلخ عن المجتمع الجاهلي واعتزله شعورياً ووجدانياً . . لا بد له من تجربة عملية بعد إعلان هذه العزلة . وهذه التجربة تتحدد بالتحدي وبالمواجهة الفعلية ، باعلان تصوراته الجديدة وتقويمه الجديد للكون والإنسان والحياة ، وللحوادث والأفعال ، ولكل شيء في الوجود ، وبمعنى شامل ، كشف هويته الإسلامية الجديدة .

(١) معالم في الطريق . سيد قطب ص ٢٠ ـ ٣١ .

هاتان الغايتان : إعلان التجمع في محاولة الهدم والبناء ، وتعميق التكوين لعضو التجمع ، يمكن جمعهما في لفظة المجابهة ، مجابهة المجتمع الجاهلي بحركة جماعية تعتمد المجابهة الفردية أساساً .

المجابهة بين التجمع الحركي والمجتمع الجاهلي :

وحركة المجابهة هذه مرحلة خطيرة في حياة التجمع والأفراد . . فالمجتمع الجاهلي، بعملية الدفاع عن وجوده، سيقوم بحركة مجابهة عكسية معتمداً على سلطانه ، ومستخدماً كافة الأساليب : القتل والتشريد . . التعذيب والتضييق . . الاستهزاء والتنديد . . وأيضاً الإغراء والترغيب . من أجل هذا كانت المجابهة عمليةخطيرة تستدعي كثيراً من الدقة والحذر ، ومزيداً من الوعي والملاحظة بيد أن الذي يضمن نجاحها ـ خاصة بالنسبة لثبات الأفراد ـ توافر شرط الانتساب للتجمع بكل مدلوله وعمقه .

ولقد ملء العهد المكي ـ بعد المرحلة الأولى ـ بصور جلية واضحة لحركة المجابهة هذه . . فهؤلاء أعضاء التجمع العضوي يخرجون من دار الأرقم ابن الأرقم قاصدين الكعبة لتأدية الصلاة ، في صفين اثنين ، على رأس أحدهما عمر بن الخطاب ، وعلى الثاني حمزة بن عبد المطلب ، ويقصدون الكعبة لتأدية الصلاة .

وكان هذا الخروج أول مظهر عملي إعلاني لقيام تجمع حركي في قلب المجتمع الجاهلي . وأراد ابن الخطاب ـ وهو صاحب فكرة إنهاء التخفي وإعلان التجمع العضوي مصداقاً لقوله تعالى فَاصْدَعْ بما تؤمَرُ وأَعرضْ عن المشركين » أن يقوم فور إسلامه بعملية تحدٍّ فردية .

فقال (لما أسلمتُ تلك الليلة تذكرتُ أيّ أهل مكة أشد لرسول الله عداوة حتى آتيه فأخبِرَهُ أني قد أسلمت . قلت : أبو جهل . . قال : فأقبلتُ حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه قال : فخرج أبو جهل .

(١) الآية ٩٤ من سورة الحجر قال القرطبي : اصدع بمعنى أظهر دينك .

فقال : مرحباً وأهلاً بابن أختي ، ما جاء بك ؟

قلت : جئتُ لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقتُ بما جاء به ، قال فضرب الباب في وجهي وقال « قبحك الله وقبح ما جئت به »[١] .

« فتّ إسلام عمر في عضد قريش أن دخل في دين الله بالحَمِيَّة التي كان يحاربه من قبل بها ، ولم يُخْفِ إسلامه ولم يستتر ، بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ، ويقاتلهم في سبيله . . وأيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم ، فائتمرت من جديد ماذا تصنع ، واتفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة ، فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وعلقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة توكيداً أو تسجيلاً .

« وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبية ـ سياسة التجويع والمقاطعة ـ ستكون أفعل الأثر من سياسة الأذى والإعنات ، وإن لم ينقطعوا عن الإعنات ولا عن الأذى ،وأقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بني هاشم وبني عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً ، ترجو خلالها أن تصل من محمد إلى اعتزال قومه إياه ، فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر . فأما محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاماً بحبل الله ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا زوداً عنه وعن دين الله »[٢] .

وكان رسول الله ﷺ يعطي أصحابه ـ أعضاء التنظيم ـ القدوة الصالحة في

(١) ابن هشام ـ ص ١٦٢ .
(٢) حياة محمد .

مجابهة المجتمع الجاهلي لكل قيمه وأفكاره وتصوراته في تحمل النتائج التي تترتب على هذه المجابهة الصريحة . . (حدثني يحيى بن عروة بن الزبير قال : حضرتهم ـ أي قريش ـ وقد اجتمعت أشرافهم يوماً في الحجر فذكروا رسول الله فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفّه أحلامَنا وشتمَ أباءَنا وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبَّ آلهتنا . . فبينا هم في ذلك طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول رسول الله : « نعم أنا الذي أقولُ ذلك » .

قال فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، قال : فقام أبو بكر عنه دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربِّي الله[1] .

وانطلق أعضاء التجمع يجابهون مجتمع الجاهلية ويتحدونه في كثير من الأمور ، حتى وقعت أحداث كبار أضفت على تاريخ الحركة مهابة وجلالاً[2] .

* * *

القرآن يجابه الجاهلية ،فيقضي على تصورها ويقرر قواعد التصور الجديد :

ولقد واكب القرآن حركة المجابهة ـ طيلة فترتها ـ وجابه هو بدوره الجاهلية فهدم وبنى ، واجتث جذور الجاهلية من نفوس أعضاء التجمع ، وأصّل فيها العقيدة صافية شامخة .

لقد كان القرآن في مجابهته للجاهلية يسعى لإظهار زيفها وباطلها وسخفها ودجلها . . يدحض ادعاءاتها ويهدم تصوراتها ، ثم يقرر النظرة

(1) سيرة ابن هشام ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(2) لولا مخافة الخروج عن موضوعية البحث والتطويل لأثبتنا كثيراً من هذه الأحداث ويمكن مراجعة السير للوقوف على المزيد .

الجديدة ، العقيدة الجديدة ، الموقف الجديد . . والقرآن ـ بهذا المعنى ـ كان ينشىء عند أعضاء التجمع وعياً خاصاً للحياة ، ومنهجاً خاصاً للوجود ، وتصوراً خاصاً للقيم والإنسان . ولا يقبل القرآن أن ينازعه أحد في هذا الإنشاء ، أن تقتلع من النفوس والعقول ، ولا يجوز بالتالي أن يحاكم إليها تنزيل رب العالمين (ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ وأنَّ ما يدعونَ مِن دونه الباطلُ وأنَّ الله هو العليُّ الكبيرُ)[1] .

وهكذا كان القرآن يفيد من العزلة الشعورية للمسلم ، فيغرس فيه ما يريد من منهج الحياة . . من أجل هذا كان للقواعد العقيدية والمسلكية ومواقف القرآن المختلفة شأن كبير ودور خطير في انتصار التجمع العلني على المجتمع الجاهلي ، وفي إيجاد المجتمع المسلم ذي السلطان والدولة . إذن كل هذه « القواعد » كانت تشير دوماً إلى ضرورة الانتقال الى التجمع الكامل حيث الحاكمية المطلقة لله . فهي إذن قواعد مقررةٌ مدربة . . وهي ، في الوقت نفسه ، قواعد ذات شأن كبير في الحياة على امتدادها .

وحيث أنشأ القرآن تصوراً إيمانياً رفيعاً في ميداني العقيدة والحركة فقد دحض مزاعم المشركين خلال مناقشته لتصوراتهم الفاسدة .

١ ـ في العقيدة : ﴿ قل الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذينَ اصطفى الله خيرٌ أمَّا يشركون أمَّنْ خلق السموات والأرضَ وأنزلَ لكم من السماءِ ماءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرَها أإلَهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون . أمَّنْ جعل الأرض قراراً وجعلَ خلالها أنهاراً وجعلَ لها رواسيَ وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرُهم لا يعلمون ، أمَّنْ يجيب المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السوء ويجعلكم خلفاءَ الأرض أإلَه مع الله قليلاً ما تَذكَّرون ﴾[2] .

(1) سورة لقمان الآية ٣١ .

(2) من سورة النمل ـ الآيات ٥٩ ـ ٦٤ .

﴿ وهو الله لا إله إلاّ هو له الحمدُ في الأولى والأخِرة وله الحكمُ وإليه ترجعون . قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم الليلَ سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غيرُ الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكمُ النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تُبصرون ﴾ القصص ٧٠ - ٧٢ .

٢ ـ الرسول بشر :

وحرص القرآن أن ينبّه الناس كل الناس ، إلى أبعاد شخصية الرسول ، وان يؤكد على بشريته وإلى أنه رسول وكفى !!

﴿ قل إنّما أنا بشرٌ مثلُكم يوحى إليَّ أنّما إلَهكم إله واحدٌ فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربِّه أحداً ﴾ الكهف ١١٠ .

﴿ قل إنّما يوحى إليَّ أنما إلَهكم إله واحدٌ فهل أنتم مسلمون ﴾ الأنبياء ١٠٨

﴿ قل يا أيُّها الناسُ إنّما لكم نذيرٌ مبينٌ ﴾ الحج ٤٩ .

﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً ﴾ الفرقان .

٣ ـ الجاهليون حُمُرٌ مستنفرة :

ويصف القرآن الجاهليين الذين رفضوا الايمان والاسلام ويشبههم ﴿ كأنهم حُمُرٌ مستنفِرةٌ فرّتْ مِن قَسْوَره ﴾ ويقول :

﴿ قلْ هل يستوي الأعمى والبصيرُ ام تستوي الظلماتُ والنورُ ﴾ .

﴿ أفمن يعلمُ أنّما أُنزل اليكَ من ربِّك الحقّ كمن هو أعمى إنما يتذكر اولو الألباب ﴾ الرعد ١٨ - ١٩ .

﴿ والذينَ لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيد ﴾ الآية ٤٤ سورة فصلت .

﴿ ويل لكل أفّاك أثيم يَسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشِّره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتّخذها هُزُواً أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنّمُ ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دونِ الله أولياءَ ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ . الجاثية ٦ - ١٠

٤ ـ المؤمنون مفلحون :

ويصف المؤمنين ، الذين استجابوا لله وللرسول ، أعضاء التجمع بقوله :

﴿ قد أفلحَ المؤمنونَ الذينَ همْ في صلاتهم خاشعونَ . والذينَ هم عَنِ اللّغوِ معرضونَ . والذينَ هم للزكاة فاعِلون ﴾ . المؤمنون ١ - ٤ .

﴿ والذين اجتنبوا الطّاغوتَ أن يعبُدوها وأنابوا إلى الله ، لهم البشرى فبشِّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهمُ الله وأولئك همْ أولو الألباب ﴾ الزمر ١٧ - ١٨ .

٥ ـ المقابلة بين التجمعين :

ويقابل القرآن بين أعضاء التجمع وبين أصحاب مجتمع الجاهلية فيقول :

﴿ أفمن يمشي مُكِبّاً على وجهه أهدى أمَّنْ يمشي سَوِياً على صراط مستقيم ﴾ الملك ٢٢ .

﴿ أم يحسبُ الذينَ اجترحُوا السيآت أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملُوا الصالحاتِ سواء مَحْيَاهم ومماتُهم ساءَ ما يحكمون ﴾ . الجاثية ٢٠

﴿ وما يستوي الأعمى والبصيرُ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ولا المسيءُ قليلاً ما تتذكرون ﴾ المؤمن ٥٨ .

﴿ أمَّنْ هو قانتٌ أناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربِّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكَّر أولو الألباب ﴾ الزمر ٩

٦ - الصراع بين التجمعين :

ويثبت القرآن مشهداً للصراع بين التجمعين . . فيظهر من خلال هذا المشهد استبداد الجاهلين وقوتهم وعنفوانهم ، وصبر المؤمنين وعنادهم وثباتهم :

﴿ إنّ الذينَ أجرمُوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مرُّوا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلِهِمُ انقلبوا فَكِهين وإذا رأوْهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليومَ الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يعملون ﴾ . المطففين **٢٩ - ٣٥** .

٧ - قواعد للسلوك تمهد لمجتمع مسلم :

وعني القرآن بتربية أعضاء التجمع ، وهم في قلب الصراع ، على مجموعة من القواعد الخلقية والاجتماعية والمسلكية والتنظيمية وكأن هذه القواعد - كما ذكرنا - منبئة بمجتمع مسلم كامل ، تمارس فيه هذه القواعد وسواها ، حيث لا تكون الحاكمية فيه إلا لله سبحانه . . فهذه القواعد التي احتفل بها القرآن المكي لم تأت عبثاً إنما جاءت - كما سنرى - لتثبت هذا المعنى أي لتهيء النفوس للانتقال إلى المجتمع المسلم . . مجتمع الله .

● في العائلة :

﴿ وإنْ جاهداكَ على أنْ تُشركَ بي ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ فلا تُطِعْهُمَا وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً واتّبعْ سبيلَ مَن أنابَ إليّ ثُمَّ إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . لقمان **١٥** .

﴿ وقضى ربُّك ألاّ تعبدوا ألاّ إيّاهُ وبالوالدين إحساناً ، إمَّا يبلغنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كلاهُما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاًكريماً ﴾ الإسراء **٣١**

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت

ايمانهم فإنهم غيرُ ملُومين . فمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ . المؤمنون **٥ - ٧**

● وفي القواعد المسلكية والاجتماعية :

﴿ ولا تقرَبوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ الله بالحقّ ومَن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سُلطاناً فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصوراً ﴾ .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشُدَّه وأوْفُوا بالعهد إنّ العهدَ كانَ مسؤولاً ﴾ .

﴿ وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتم وَزِنُوا بالقِسْطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ .

﴿ ولاَ تقفُ ما ليس لك به علم إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كانَ عنهُ مسؤولاً ﴾ .

﴿ ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً إنَّك لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طُولاً ﴾ .

﴿ كلُّ ذلك كان سَيِّئُهُ عند ربِّك مكروهاً . ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة ﴾ سورة الإسراء الآيات **٣٢ - ٣٩** .

● وفي النظرة إلى الدنيا والإنفاق :

﴿ مَنْ كان يريدُ العاجلةَ عجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريدُ ثم جعلنا له جهنَّمَ يصلاها مذموماً مَدْحوراً،ومَن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سعيَها وهو مؤمنٌ فأولئك كانَ سعيُهم مشكوراً ﴾ الإسراء **١٨** .

﴿ وآتِ ذا القُرْبى حقَّهُ والمسكِينَ وابنَ السَّبِيلِ ولا تُبذر تبذيرا ﴾ الآسراء **٢٦** .

﴿ وفي أموالِهم حقٌ للسّائِل والمحروم ﴾ الذاريات ١٩ .

﴿ فـآت ذا القربى حقّـه والمسكينَ وابـنَ السبيل ذلك خيرٌ للـذين يريدون وجهَ الله وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يَرْبو عندَ الله وما آتيتُم من زكاةٍ تريدونَ وجه الله فاولئك هم المُضْعِفُون ﴾ الروم ٣٨ - ٣٩ .

● **وفي قواعد التنظيم العامة :**

﴿ والذينَ استجابوا لربِّـهم وأقاموا الصلاةَ وأمرُهُم شورى بينَهم ومما رزقناهم يُنفقون ﴾ الشورى ٣٨ .

﴿ وما اختلفتمْ فيه مِنْ شيء فحكمهُ إلى الله ذَلِكُمُ الله ربِّي عليه توكلتُ وإليه أنيبُ ﴾ الشورى ١٠ .

﴿ إنّ الله يأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعِظُكم لعلَّكم تذكَّرون ﴾ النحل ٩٠

﴿ وأوفوا بعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ وَلاَ تنْقُضُوا الأيمانَ بعد توكيدها وقد جَعَلْتُم الله عليكم كفيلاً إنَّ الله يعلمُ ما تفعلون ﴾ النحل ٩٠ - ٩١ .

وكلمة أخيرة في هذا الصدد نأخذها من التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة أثبتها تعليقاً على وصايا سورة الإسراء المشار إليها أعلاه فقال :

« من الجدير بالـذكر أن الأوامـر والوصـايا جاءت بأسلـوب التـرغيب والتحذير والترهيب دون التشريع لأن هذا إنما كان في العهد المدني الذي صار للمسلمين فيه دولة برئاسة النبي ﷺ وعلى ذلك فمعظـم ما نزل فيه تشريع مدني من المحذورات والمحظورات والواجبات والتكاليف قد ذكر بأسلـوب الترغيب والتحذير في القرآن المكي ، حيث ينطوي في هذا أن أسس الرسالة

الإسلامية ومحكماتها أصيلة وطيدة منذ البدء »[١] .

٨ - التـوعية السياسية :

وأفاد القرآن من الظـروف الـدولية لتعميق الوعـي السياسي في أعضـاء التجمع ولزجِّـهم في تحديات سياسية مع المجتمع الجاهلي رغبة في تصور سليم للأحداث والوقائع وتهيئةً لهم في دخول معترك السياسة على صعيد الدولة .

لما نزلت ﴿ آلم . غُلبت الـروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بضع سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصرُ من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعدَ الله لا يخلفُ الله وعده ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ . سورة الروم - كانت فارس - فيما رواه الإمام الترمذي - قاهرين الروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ يومئذ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله ينصرُ مَن يشاءُ وهو العزيز الرحيم ﴾ .وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتـاب فلما أنـزل الله هذه الآيات خرج أبـو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ آلم غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بضع سنين ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم . زعَمَ صاحبُكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون وتواصفوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه ، قالوا فسموا بينهم ست سنين .

قال فمضت ست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما وصلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس .

---

(١) التفسير الحديث الجزء الثالث ص ٣٣٢ .

قال فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ، قال لأن الله يقول بضع سنين ، قال فأسلم عند ذلك ناس كثير[1] .

وكلمة أخيرة في التجمع الحركي .

٩ ـ التجمع على العقيدة لا على العصبية :

إن أسلوب التجمع الذي اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام كان أسلوباً جديداً مرفوضاً بحد ذاته من العرب ، فهؤلاء قد اعتادوا على أسلوب التجمع العصبي في قبيلة أو فخذ أو بطن . . فللنسب شرف ، وللثراء قدر ، وللجاه نفوذ ، ولا يجوز على أي حال أن يلتقي ، في مساواة ، عبد وسيد ، فقير وغني . فعندما دعا النبي عليه الصلاة والسلام بدعوته جاعلاً التفاضل بالايمان لا بالعصبية ، وبالتقوى لا بالمال ، كان بذلك يُرسي قواعد المجتمع الإسلامي المنشود .

ولقد واجه التجمع الجديد انتقادات لاذعة من أشراف قريش والقبائل ، إلا أنه تخطاها بثبات وعناد . . فكان هذا التجاوز تجربة حية ناجحة في تجمع كامل يقوم على صعيد العقيدة ، فأعضاء التجمع في مكة شعروا فيما بينهم ـ على اختلاف ما هم فيه من نسب وثراء وشرف ـ بوحدة عقيدية قوية أضفت على ترابطهم قوة هي أقوى من أي رباط قديم .

وكان هذا الشعور منبتاً لكثير من التعاطف والمودة والتضحية فيما بينهم ، حتى غدوا جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذه التجربة أخصبت نفوس العرب ، وأكدت لهم أن التجمع الحق لن يقوم إلا على العقيدة . فغدا هذا التجمع ، بهذا المعنى أيضاً ، ضرورة تمهيدية كبرى لا بد منها قبل إقامة التجمع الكبير .

* * *

(١) من حديث للترمذي ذكره ابن كثير في تفسيره الجزء الثالث ص ٤٢٣ .

على التجمع درس ظروف المكان والزمان والإفادة منها :

أشرنا سابقاً إلى أن التجمع الحركي يحاول ـ وهو في قلب الصراع مع المجتمع الجاهلي ـ ايجاد تجمعات مماثلة له في أماكن متعددة . من أجل هذا كانت الهجرة إلى الحبشة ، والاتصال بالقبائل والانتقال إلى الطائف وملاقاة الوافدين إلى مكة . .

والتحرك ـ على هذا المستوى ـ ضرورة لا مفر منها . بيد أن ظروف المنطقة في ذلك الحين ـ ساعدت عليه . فمن حيث المبدأ ، لا تأثير لقبيلة على أخرى ، ولا لمدينة على أخرى ، فكل مستقل بذاته ، يقرر ما يراه مناسباً . هذا الظرف فاد منه التجمع الحركي للمدى البعيد . ولا بد لكل تجمع أن يفيد من ظروف زمانه ومكانه في تخطيط حركته ضمن الدوائر التي يرسمها ويهدف لتحقيقها .

لقاء الخزرج والبيعة الكبرى:

وكان أن التقى الرسول عليه الصلاة والسلام بنفر من يثرب ، جاؤوا في موسم الحج إلى مكة فقال لهم : « مَن أنتم » ؟ قالوا : نفر من الخزرج ؟ قال أمِن موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : « أفلا تجلسون أكلِّمكم ؟ » قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجلّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . . . فأسلموا . . وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[1] .

وانتظر الرسول عليه الصلاة والسلام رد فعل الستة في يثرب ، كاختبار حقيقي لها . . فإذا العام القابل يحمل معه اثني عشر رجلاً ، من أوس

(١) ابن هشام ٢١٨ مجلد دار الريحاني .

وخزرج ، يبايعونه على الإسلام ، عند ذلك أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام قابلية البيئة لترعرع العقيدة .. فكان لا بد من تركيز و« تنظيم » التجمع الجديد ، فأرسل موفداً من أعضاء تجمعه في مكة ، مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين)[١] ثم كان لقاء العقبة الكبرى .. مع اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل يثرب من الأوس والخزرج ، فتأكد عند الرسول أمر لا يقبل الشك : أن التجمع في المدينة قد قام ، فها هي العقيدة قد ألفت بين الأعداء وصهرتهم في بوتقة تجمعية واحدة ، تسوسهم فكرة واحدة ، وترعاهم قيادة واحدة ..

إلتحام التجمعين في يثرب :

في هذه اللحظة اختمر مبدأ التلاحم بين التجمعين : تجمع مكة وتجمع يثرب في قلب يثرب . وعبّر عن هذه الفكرة العباس عمُّ الرسول ، فقال مخاطباً تجمع يثرب : (إنّ محمداً منا حيث قد علمتهم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده) .

وأكد الرسول عليه الصلاة والسلام حديث العباس وأشار إلى انتقاله إلى يثرب ، وطلب الالتزام بالعهد والموثق (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)[٢] .

« قال ابن إسحاق : فلما أذن الله تعالى له في الحرب ، وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصر له ولمن تبعه ، أمر الرسول أتباعه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) ابن هشام ٢٢١ - ٢٢٨ .

إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : (إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا أرتالاً وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة)[١] .

والتقى التجمعان في يثرب ، لكنهما بقيا تجمعين ولم يتحولا إلى مجتمع كامل ، لأن القيادة لا تزال غائبة ، وبوجودها يتم التكامل في التجمعين ويعلن ميلاد المجتمع المسلم ، إذ إن التكامل يعني سلطة ، وقيادة دولة ، وسيادة

انضمام القائد وبناء المسجد:

وانتقل الرسول فولد المجتمع المسلم بكل خصائصه وميزاته ، بكل مواصفاته ومقوماته . وبادر القائد لاتخاذ التدابير الكفيلة برعرعة هذا المجتمع الوليد ، وتطويره وتنسيقه وفق الأهداف الكبرى التي ارتسمت بالعقيدة من أول يوم ...

فقد حلّ القائد التجمعين ودمجهما في تجمع واحد متكامل ، وهذه هي أبعاد الإخاء الذي حققه بين أعضاء التجمعين:المهاجرين والأنصار ...

ثم أسس دار السيادة فابتنى المسجد للصلاة والحكم معاً ، وبعد أن أخذ العهد والموثق لله من الجميع مسلمين ويهود[٢] ، أعلن ميلاد ا لدولة التي تسوس الجميع باسم الله ، كبدل من الله للناس .

« هذا هو المجتمع المسلم ، المجتمع الذي تتمثل فيه العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل في شعائرهم وعبادتهم كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم[٣] ...

(١) ابن هشام ٢٣٦ .
(٢) سنتكلم عن هذا العهد بعد قليل .
(٣) معالم في الطريق ص ١١٦ .

« إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله . . لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر . . ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع . . ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة . . تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـ معه أو دونه ـ وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله ـ معه أو من دونه »[٣] وقد وجدت هذه الجماعة من الناس . . فقام المجتمع المسلم .

التشريع : ضبط الارتباط بالله ، وتقعيد القواعد الإلزامية :

إن المجتمع ـ ذا السيادة والسلطان ـ وهو يواجه « حاجات » مستجدة لا بدّ له من تشريع وأحكام وتنسيق وتنظيم . . أو بمعنى آخر . . لا بد من « ضبط » الارتباط بالله ذلك الضبط الذي نشأ في أعماق هذا التجمع الكامل ، وعمل على تنميته وتطويره والمحافظة عليه . . فلا بد إذن من تبيان الحقوق والواجبات والأهداف والغايات ، ولا بد من أوامر ونواة وحدود وقصاص وأنظمة وقوانين في مختلف المرافق والميادين .

وهكذا جاء دور التشريع القرآني ، أي تقرير قواعد إلزامية ، بعد أن جاءت بصيغة خلقية إيمانية . وهذا الدور ـ بحد ذاته ـ من أهم الأدوار في تأصيل مفهوم الدولة في وعي المجتمع والناس . . فالله سبحانه الذي يتوجه إليه المجتمع بالعبادة والشعائر توجه هو إلى هذا المجتمع بنظام ومنهج حياة .

وبدأ المجتمع المسلم الناشيء يتلقى عن الله سبحانه أصول التنظيم والحكم فيحيلها مباشرة إلى واقع تنفيذي ، دون تردد أو نظر . . وهكذا . . وما ان مرت سنوات عشر حتى أتم الله دينه وشرعه ، وارتضى الإسلام للناس منهج حياة ، وتمت كلمة ربك حقاً وعدلاً .

* * *

مراحل إعلان قيام الدولة الاسلامية الأولى

وجدت دولة « الإسلام » بوجود المجتمع المسلم . . وهذه حقيقة لا يمارى فيها . . بيد أن الإعلان عنها كدولة تمارس وجودها الفعلي في السيادة ، لم يكن دفعة واحدة بل مرّ في أطوار ثلاثة :

الطور الأول : وهو طور الإعلان الداخلي .

والطور الثاني : طور الإعلان الإقليمي .

والطور الثالث : طور الإعلان العام أو الدولي .

١ ـ الإعلان الداخلي وموثق المدينة :

إن الإعلان الداخلي لوجود الدولة كان بتقرير الارتباط بقياد تتبع منهج الله . وهذا التقرير صدر عن جميع أبناء المجتمع بشكل موثق وعهد . .

ولقد كان هذا الإعلان ، من أهم ما سعى إليه الرسول عليه الصلاة والسلام فور دخوله المدينة ، فكتب بين المهاجرين والأنصار من جهة ، واليهود الآخرين من جهة أخرى كتاباً يعد أخطر وثيقة في إعلان الدولة بين أبناء مجتمع واحد[١] .

---

(١) ولأهمية هذه الوثيقة أردنا إثباتها هنا بعد أن وزعناها على أبواب تبعاً لموضوعاتها ، وقد جاءت في كتب السير (سيرة ابن هشام) على غير هذا الترتيب :

الباب الأول : في المبادىء العامة

١ ـ وحدة الأمة :

ـ هذا كتاب من محمد النبيﷺ ـ بين المؤمنين والمسلمين ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس .

وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وأن يهود بني عوف . . (أيضاً بقية اليهود كما سنرى) أمة مع المؤمنين .

٢ ـ السيادة والحاكمية :

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمدﷺ . وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول اللهﷺ . =

أما الطور الثاني في إعلان دولة الإسلام ـ وهـو الإعـلان الاقليمـي أي الإعلان الذي يشعر أهل المنطقة بوجـود قوة متماسكة ذات سيادة ، تمـارس

٢ ـ الاعـلان الاقليمي وغـزوة بدر

= **٣ ـ الانتظام التام :**

وأن ذمة الله واحدة .
وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .
وأن البر دون الإثم .
وأن النصر للمظلوم .
وأن الله أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه .
وأن الله على أبر هذا .

الباب الثاني : مبادىء في النظام الداخلي العام

١ ـ الحريات :

- **حرية الاعتقاد .**

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو اثم فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

- **حرية الإقامة والتنقل .**

وأنه من خرج آمن ،ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم .

٢ ـ حفظ الأمن :

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .
وأن المؤمنين المتقيين على من بغى منهم أو ابتغى دسيمة (العظيمة) ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤذيه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
وأن بينهم (المؤمنين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .
وأنه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمد ﷺ .

الباب الثالث : في بعض الأنظمة والتشريع

١ ـ في الجريمة والعقاب وحرمة النفس :

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

وجودها الفعلي ، وتقيم العلاقات والارتباطات ـ فقد أتى سريعاً بعد الهجرة بأشهر أي في رمضان من العام الثاني للهجرة . فقد دخل التجمع الإسلامي معركة مصير مع قريش خرج منها منتصراً مظفراً ، أشعر العرب قاطبة بوجوده

= وأنه من اعتبط (قتله بلا جناية منه توجب قتله) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود (أي فدية) به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون . . .

٢ ـ في العدل والمساواة والشورى :

وأن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس .
وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

٣ ـ في الاقتصاد والتكافل :

المهاجرون من قريش . . يفدون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وأن المؤمنين لا يتركون مغرماً (معسراً) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .
وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٤ ـ في العلاقات الخارجية : السلم والحرب

وأن سلم المؤمنين واحدة ،لا يسالم دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .
وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه .
وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .
وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموامحاربين .
وأنه لا يجاز قريش ولا من نصرها .
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

أسماء من اشترك في توقيع الصحيفة

أ ـ المسلمون : قريش ـ بنو عوف ـ بنو ساعدة ـ بنو الحارث ـ بنو جشم ـ بنو النجار ـ بنو عمر وبن عوف ـ بنو النبيت ـ بنو الأوس .
ب ـ اليهود : بنو عوف ـ بنو النجار ـ بنو ساعدة ـ بنو جشم ـ بنو الأوس ـ بنو ثعلبة ـ بنو المشيطة .

وبتحركه وبقوته وسيادته وإنه لن يسكت على من يظلم حتى يأخذ منه حقوقه كاملة غير منقوصة . .

لقد كانت غزوة بدر ـ في حقيقتها ـ إعلاناً هاماً لوجود دولة الإسلام . . فهذه قريش خرجت بخيلائها وجندها ورجالها ، ورفضت أن تعود ـ مع علمها بنجاة القافلة ـ قبل أن ترد بدراً فتقيم فيه ثلاثة أيام : تنحر الإبل ، وتعزف القيان ، وتشرب الخمر فتسمع بها العرب ، فلا يزالون يهابونها[1] . وهذا التجمع المسلم بجياعه وعراته وحفاته يدعو ربه (اللهمّ إن تَهْلِكَ هذه العِصَابَة اليوم لا تعبد . .)[2] . وتدور المعركة ، وينتصر التجمع . . ويحدث هذا الانتصار الضخم دوياً هائلاً تسمع به العرب فتتعرف من خلاله إلى ميلاد هذا التجمع الجديد . . ميلاد الدولة التي تعرف كيف تتحرك . .

* * *

٣ ـ الإعلان العام عبر مراسلة الحكام والجهاد :

ويأتي الطور الثالث . وهو تعريف العالم بوجود الدولة ، قوياً نابعاً من أعماق العقيدة والمبدأ . فدولة الإسلام قد انبثقت من لدن الله ـ في قلب جزيرة العرب ـ لتفيض على الإنسان في كل مكان تصوراً وضبطاً وارتباطاً . . ولتخرج الناس (من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الأرض إلى سعتها . . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . .)[3] .

بدأ هذا الإعلان ـ في السنة السابعة للهجرة ـ عندما أرسل عليه الصلاة

(١) من كلام لأبي جهل في غزوة بدر . يراجع ابن هشام مجلد واحد ص ٣٤٧ طباعة الريحاني .

(٢) من دعاء الرسول يوم بدر . المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٣) من كلمات ربعي بن عامر إلى رستم ملك الفرس .

والسلام كتباً إلى أمراء وملوك وأباطرة ذلك الزمان يدعوهم فيها إلى الإسلام . . ولعمري إنه لإعلان دولي عن وجود دولة الإسلام الفتية ، ما بعده إعلان ولا إعلام . .

قال عليه الصلاة والسلام في كتابه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] .

﴿ يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلاّ الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

ولقد علق الدكتور محمد حسنين هيكل في كتابه « حياة محمد » على ذلك بقولهَ[2] :

« كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتي الروم والفرس أقوى دول العصر وصاحبتي الاملاء في سياسة العالم وفي مصاير أممه جميعاً . . ومن اليسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدر ما يبعثه أسماها من الرهبة إلى النفوس ، ومن الهيبة إلى القلوب حتى لا تفكر دولة في التعرض لهما ، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر في غير خطبة ودّهما . . أما وذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً فقد . . كان عجيباً أن يفكر محمد عليه الصلاة والسلام يومئذ في أن يرسل رسله إلى الملكين العظيمين ، وإلى غسان ، واليمن ،

(١) يريد أنه مسؤول عن إثم رعيته ؟ لمنعه إياها عن الدين الجديد ؟

(٢) حياة محمد ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

ومصر ، والحبشة (وعمان واليمامة) يدعوهم إلى دينه دون خشية ـ لما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بيزنطية . .

« لكن محمداً لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعاً إلى دين الحق ، بل خرج يوماً على أصحابه فقال (أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة للناس كافة . . ثم ذكر لهم أنه مُرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحِمْيَرِي ملك اليمن وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام .

وأجابه أصحابه إلى ما أراد ، فصنعوا له خاتماً من فضة نقش عليه (محمد رسول الله) . .

ويترتب على هذا الإعلان أثره . . وتتحرك الدول للقضاء على دولة الإسلام ، فيهب التجمع الإسلامي معلناً بدء مرحلة جديدة في حياته : تحرير الناس ، كل الناس ، من عبودية غير الله ، وتخليص الأرض كل الأرض من كل طاغوت وإخلاصها لله وحده . .

« ومن ثم لم يكن بداً للإسلام أن ينطلق في الأرض لإزالة الواقع المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان والحركة مجتمعين . وأن يُوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله . أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه ـ والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان ، ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي ـ بعد إزالة القوة المسيطرة »[1] .

---

(١) معالم في الطريق ـ فصل الجهاد في سبيل الله ص ٨٦ .

إن دولة الإسلام قد انبثقت في قلوب المسلمين من أول يوم خلعوا فيه ربقة الجاهلية ، ومن اللحظة التي انعزلوا فيها شعورياً عن كل قيم المجتمع الجاهلي . .

ولقد نشأت بعد ذلك وترعرت في كل تجمع حركي . . وعندما أدرك التجمع أنه يستطيع التحول إلى مجتمع مسلم كامل ، تجسدت الدولة في واقع هذا المجتمع حية نابضة فاعلة موجهة ضابطة . . . ولم تألُ جهداً بعد ذلك في إعلان نفسها داخلياً بين أبنائها ورعاياها ، ومحلياً بين الجوار الذين يحيطون بها ، ودولياً بين الأمم والشعوب . .

الدولة عطاء من الله !!

هذه الدولة هي عطاء من الله . . وهي الدولة « الطبيعة » لإنسان هذه الحياة ـ الذي عرف ربه ونفسه ووجوده وكونه ـ وهي التي استظل بظلها الأوائل السابقون ، وهي التي حرمت ، من نعيمها ، الإنسانية المعذبة طيلة قرون . . فهل تشرق شمسها من جديد ؟؟ .

الفصل الخامس

كيف دالت دولة الإسلام

لم تقم دولة الإسلام لتدول . . إنما قامت لتبقى وارفة الظـلال ، يتفيأ تحتها كل إنسان في كل زمان ومكان . .

هذه حقيقة ـ أثبتناها في فصل مفهوم الدولـة ـ لكنهـا حقيقـة مبـدئية ، عاكسها التاريخ وتفلتت منها دولة « المسلمين » . .

لقد نشأت دولة الإسلام ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ على عين القرآن وبيد رسول الله ﷺ وانبثقت من أعماق التجمـع فكرية رخية قوية مهيبة ، وتحركت بالتجمع فأزالت الطاغوت من الأرض ، ونشرت ظلال الحق والعدل في الوجود . .

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة ، فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق ، والدين والعلم ، والأدوات المادية في تنشئة الإنسـان الكامل وفي ظهور المدنية الصالحة .

كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثـل الخلقية العليا ، وتحـكم معـايير الأخـلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخـلاق والفضيلـة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفـال

لحضارة ، فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد .

إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه ، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير ، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها . . يعدون هذا العالم مملكة الله استخلفهم فيها ـ أولاً : من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض . . وثانياً : من حيث أنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد ، فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهلها . . . وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر ، يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها ، يرشدون الضال ، ويردون الغاوي ، ويصلحون الفاسد ، ويقيمون الأود ، ويرأبون الصدع ، ويأخذون للضعيف من القوي ، وينتصفون للمظلوم من الظالم ، ويقيمون في الأرض القسط ، ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿ كنتُم خيرَ أمَّة أخرجتْ للناس تأمُرون بالمعروف وتَنْهَوْنَ عن المنكر ، وتؤمِنون بالله ﴾ ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ﴾[1] .

الخلافة الراشدة هي الوجود الحق وليست استثناءً مثالياً :

ما تقدم هو الأصل في دولة الإسلام . . أي . . إن الخلافة الراشدة ـ التي سبق وصفها ـ هي صورة عن القرآن والإسلام ، عكست « بدلاً » من الله لمن أعطى العهد بالخضوع له والاستسلام لمشيئته . بمعنى أن الخلافة الراشدة هي الوجود الحق المطابق لفطرة الإنسان . فعندما استقام الإنسان على النهج السليم السديد وعاشه وتفاعل معه أضحى صورة عنه ، وكأن المنهج قد تجسد

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ الهند ـ ص ١٢٢ ـ ١١٣ ـ ١١٤ .

فيه ، وفي هذه الحالة فقط يكون الإنسان قد أدرك نفسه وعرف ربه ووجوده . . أي إن الإنسان قد غدا طبيعياً دون تعقيد ، سوياً دون انحراف ، وبالتالي فإن الدولة التي تظلله لا يمكنها أن تكون إلا طبيعية ، وأصيلة سوية ، لا انحراف فيها . .

فإذا قام من يصف الخلافة الراشدة بأنها « فترة استثنائية » مثالية بعد أن ردد مع ابن طباطبا قوله « لم تكن على طراز دول الدنيا ، وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق في هذا أن زيّها قد كان زي الأنبياء ، وهديها هدي الأنبياء ، وفتوحها فتوح الملوك ا لكبار » . وإذا ما قرر بعد ذلك ، أن المسلمين الأوائل كانوا يتوقعون (لهذه الفترة الاستثنائية المثالية أفولا سريعاً)[1] يكون ـ مع تقديرنا لعمله وفهمه ـ قد جانب الحق والصواب .

فصحح أن الخلافة الراشدة ـ على ما وصفها السيد الندوي أو ابن طباطبا ـ كان زيها زيّ الأنبياء ولا تشبه أياً من دول الدنيا . . إلا أن هذا لا يجعل منها مرحلة مثالية استثنائية في حياة الإنسان . . وظني أن المشكلة ـ في هذا الصدد ـ ترتد إلى تفهم الإسلام من حيث هو دين ومنهج حياة . . فإذا اعتبرنا أن الإسلام بأحكامه وشرائعه مثالياً ، أي فوق قدرة الانسان ، أي « غير واقعي » في منهجه وأخلاقه وتصوراته . . جاز لنا أن ننعت الفترة التي طبق فيها الإسلام بالمثالية الاستثنائية ، فالإنسان في هذه الفترة ارتفع ـ وفقاً لهذا المفهوم ـ إلى « أعلى » من قدرته فصادف ، في علوه هذا ، منهجاً إسلامياً فطبقه . . فلما عاد هذا الإنسان إلى طبيعته تخلى عن الإسلام باعتبار أن الارتفاع استثناء وليس أصلاً .

ويترتب على هذا :

(١) النظم الإسلامية لفضيلة الدكتور صبحي الصالح ص ٢٧٨ .

معقبات اعتبار الخلافة الراشدة استثناءً مثالياً

أن الإسلام استثناء في مناهج الحياة والأديان ، أي أنه يحمل في طياته سبب رفضه وجرثومة فنائه . . فالإنسان (الطبيعي) ـ بمعنى العادي ـ لا يمكنه أن يتعامل مع الإسلام أو أن يحتكم إلى الإسلام في تصوراته وشؤون حياته لأن هذه فوق مستواه . . فطبيعي ـ والحالة كما وصفنا ـ أن تأمل فترة التطبيق المثالي ـ الخلافة الراشدة ـ (أفولاً سريعاً !!!) وينقلب الوضع الحياتي إلى ما انقلب إليه في التاريخ ، أي أن ينحرف « المسلمون » عن تطبيق إسلامهم ويتخلوا عن منهج ربهم ، فهذا هو الطبيعي وبالتالي المنطقي ، فالإسلام مثالي وتطبيقه مثالي فهو إذن شاذ ولو كان شذوذاً في المثالية والخيال !!

ويعقب هذا التصور أمرين :

أولهما : تبرير « فلسفي » لانحراف المسلمين عن الإسلام ، إذ لا يمكن أن يبقى الإسلام مطبقاً في الوجود باعتباره يتطلب إنساناً مثالياً .

ثانيهما : الإيحاء باستحالة « تطبيقه » مجدداً في واقع الحياة لصعوبة إيجاد الإنسان المثالي أولاً ، ولعدم جدوى التطبيق ثانياً ـ وعلى افتراض تحققه فإن مرحلته لن تكون أطول من الخلافة الراشدة حيث الصحابة والتابعون . . وستأفل أفولاً سريعاً لأنها شاذة ولو شذوذاً مثالياً .

ونعتقد أن هذا المفهوم مفهوم استشراقي ، تأثر به كثير من مفكرينا وكتّابنا الإسلاميين ـ بقصد أو بدون قصد ـ ونقلوه ، منتبهين أو غير منتبهين الى ما يجره من ذيول منكرة ، تعمل على « تلويث » التصور الإسلامي عن الدولة والإنسان تلويثاً فتاكاً . .

مناقشة د . عبد الكريم الخطيب :

ومن هؤلاء . . الدكتور عبد الكريم الخطيب صاحب كتاب (الخلافة والإمامة ديانة وسياسة) الذي يقول[1] :

(١) الطبعة الأولى ١٩٦٣ صادرة عن دار الفكر العربي بالقاهرة ـ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

وطه حسين :

« والحق أن الخلافة التي عرفها المسلمون لأول عهدهم بعد النبي قد استوفت حظها من الحياة ، وأنها ماتت ميتة طبيعية . . وما كان لها أن تصحب الناس أكثر من هذه المرحلة القصيرة التي صحبتهم فيها ، ثم تسلمهم بعدها إلى الحياة . . الحياة كما يحياها الناس . . الحياة التي يختلط فيها الخير بالشر ، ويتصارع فيها الحق والباطل ، ويتغالب فيها الدين والدنيا . .

ففترة الخلافة الراشدة ليست محسوبة من حياة الناس ، على الوجه الذي قدر لهم أن يصحبوها عليه ، وإنما هي فترة استثنائية أشبه بفترة النبوة . . فكما أن فترة النبي لن تعيش في الناس ، ولن يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة ، وإلا زمناً محدوداً ينتهي بوفاة النبي ، كذلك الفترة التي تعقب النبي . . لا تعيش في الناس ، ولا يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة ، لا تتجاوز بحال أبداً ما كان لفترة النبي من عمر !! وربما كان لك أن تضع هنا معادلة زمنية بين رحلة الشمس من مشرقها إلى مغربها ، وبين هذه الفترة التي تعقب غروب الشمس وانسدال الظلام .

« فترة الخلافة الراشدة » إذن كانت فترة « استثنائية » لا ينبغي أن نخضعها لمفهوم الحياة الممتدة في أجيال الناس ، كما لا ينبغي أن ننتظر قيامها مرة أخرى على الوضع الذي قامت عليه في أول أمرها ، إلا إذا قامت في الحياة نبوة كنبوة محمد وذلك أمر قدّر له ألا يقع !

« وإنا إذا نظرنا إلى الخلافة الراشدة » هذه النظرة ، وعلى هذا التقدير أرحنا أنفسنا من هذه البلبلة وهذا الاضطراب في أمر « الخلافة » وأزحنا من صدورنا هذا القلق وهذا الهمّ الثقيل الذي نعالجه ونحن نطالع هذه الأحداث ، ونستقبل وجه تلك الفترة التي نبتت في مغارس الخلافة . . . فإننا نجد لكل هذا منصرفاً ينصرف إليه ، إذ نحن لم نجعل للخلافة هذا المقام الذي كانت عليه بعد النبوة ، وإذا نحن لم نتشبث بوضعنا فيه . . وإذا سلمنا بأنها في تلك الفترة لم تكن إلا عارية مؤداة ، ولن تكون من أشياء الحياة التي

نضم عليها أيدينا ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء . . جيلاً بعد جيل .

وليس بعيداً عن هذا المعنى ما كتبه طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » حين تساءل :

« فهل كانت هذه السيرة التي سارها النبي واجتهد صاحباه أبو بكر وعمر في أن يسيراها ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ملائمة لما فطر عليه الناس من الأثرة والطمع والحرص على المنافع الحاسمة .

وهل كانت هذه السيرة قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التي دعا إليها النبي وصاحباه ؟ »[1] .

ويجيب :

« وأكاد أعتقد أن الخلافة كما فهمها أبو بكر وعمر كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه . . . »[2] .

* * *

الخلافة الراشدة أصدق مرحلة في التطبيق الإسلامي :

إن الفهم الإسلامي الصحيح للخلافة الراشدة هو أنها أصدق مرحلة في تطبيق الإسلام تطبيقاً سوياً وهي لم تشابه دول الدنيا ـ على حد تعبير ابن طباطبا ـ لأنها غير دول الدنيا في المنشأ والتصور والهدف .

إن الإنسان « الجاهلي » ـ العربي والأعجمي ـ كان ضائعاً في خضم ركام من تصورات بشرية مخرفة ، فلا هو يعرف نفسه ولا غاية وجوده ولا معطات حياته ، ولا هو يعرف منهجاً سلياً للحياة ، فقد كان منحرفاً عن « السوية

(١) الفتنة الكبرى ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٥ .

البشرية » ساقطاً عن حدود الإنسان المكرّم من الله، خليفة الله ، فجاءه الإسلام ليُعْرفه بنفسه وبكونه وبحياته وقبل كل شيء بربه ، وليهبه بعد ذلك « بدل » العهد الذي أخذ منه ، ليمنحه منهج حياة ودولة تشرف على التطبيق والتنفيذ . وبذلك يكون الإسلام قد رفع الإنسان فعلاً ، لكنها رفعة من الضياع إلى درجة الإنسان الصحيح السوي . . هذه الدرجة التي هي « الأصل » في الإنسان . . بل هي الإنسان بالذات . . ودونها يفقد « الإنسان » معنى إنسانيته ، فيهوي في أوهاد الضلال ، والتيه ، والضياع .

إن الإسلام جاء لبشر لهم طبيعة البشر ، وليتعامل معهم على أنهم بشر ، فلا يفترض في الناس الملائكية ﴿ قل لو كانَ في الأرض ملائكة يمشونَ مطمئنِّين لنزلنا عليهم من السّماء ملكاً رسولاً ﴾ الإسراء ٩٥ ﴿ كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ﴾ ﴿ والله لو لم تخطئوا فتستغفروا ويغفر الله لكم لأتى بقوم يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم ﴾ أو كما قالﷺ :

ولقد جاءت أحكام الإسلام المختلفة في الحكم والاقتصاد والمال والاجتماع بناء لمعرفة أصيلة بكينونة هذا الانسان وقدرته وطاقته واستعداده . . وبكل شيء فيه . . ويتحصل من ذلك أن تطبيق الإسلام في العهد الراشدي ـ وفي المستقبل إن شاء الله ـ لن يعتبر مثالياً استثنائياً ، بل طبيعياً واقعياً ، **وإن الانقلال الذي حدث في التاريخ بعد الخلافة الراشدة كان انحرافاً عن الطبيعة السوية » للإنسان ، وليس عودة بالإنسان إلى درجته الطبيعية بعد فترة « المثالية الاستثنائية »** .

الانحراف عن منهج الله أول الأسباب في غياب الخلافة الراشدة :

ومن هذه المناقشة يتضح لنا سبب هام ، بل أهم الأسباب بلا جدال ، لزوال دولة الإسلام ، وهو تخلي المسلمين عن منهج الله السديد السليم . هذا الانحراف . . هو الذي عطل دولة الإسلام عن العطاء ، وأوقف دور الوساطة بين الله والناس في بركات من السماء والأرض ﴿ ولو أنَّ أهلَ القُرى آمَنُوا

واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السّماء والأرض . ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسِبُون ﴾ سورة الأعراف .

وكان لا بد من عقوبة على هذا الانحراف وقد كانت . . « إن عقوبة الانحراف عن منهج الله عقوبة كبرى قد تتجاوز عقوبة أولئك الذين لم يتفيأوا بظلال العقيدة الكبرى ، فالذين عرفوا ثم كفروا . . الذين استضاءت قلوبهم النور ثم أظلموها بالطاغوت ، هؤلاء شر مكاناً وأظلم الناس بدون جدال . . فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله ، ونكلوا عن العهد الذي أبرموه مع الله ، وعطلوا في أنفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله . . فليس عجيباً بعد ذلك أن يتعطل دور الدولة في الوساطة ، وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله . . . وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ، ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة ، وكأن الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازياً أبداً مع خط منهج الله . . فإذا ما تمثل الإسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكاً وتشريعاً أدرك الناس الثواب في نهاية الخط المتعالي ، وإذا ما تخلوا عن شريعة الله هبطوا هبوطاً بشعاً فأصابهم العقاب في الطرف الآخر من لخط الأبدي ، سنة الله ولن نجد لسنة الله تبديلاً[1] .

والانحراف ـ كما أسلفنا ـ لا يظهر دفعة واحدة . فهو كالخط الذي نشكل به زاوية مع خط آخر ينفرج قليلاً ثم لا يلتقيان . . وهكذا يتحول الانحراف مع الزمن ديناً آخر يختلف عن الدين الأول مظهراً وجوهراً .

ولقد بدأ الانحراف في دولة الإسلام من أخطر قاعدة فيها ، من العروة

---

(1) راجع فصل (مفهوم الدولة) من هذا الكتاب .

الجامعة من الحكم ، فكان بمثابة نقض له . . إذ حول الانحرافُ الحكَم إلى ملك عضوض[1] .

والحقيقة أن هذا الانقلاب في نظام الحكم لم يظهر دفعة واحدة ولم يقبله المسلمون ولا صفوتهم مرة واحدة ، فقد مر في مراحل عديدة ، كادت تقضي عليه . . لولا أن قضى عليها بقوة الحديد والنار . .

ولاية معاوية ـ بعد علي ـ انعقد عليها الإجماع :

لقد آل الحكم إلى معاوية بعد الحرب النكدة ، وبعد استشهاد الإمام علي كرم الله وجهه ـ وليس في ولايته شيء ـ خاصة بعد أن انعقد عليه الاجماع ، وبايعه مخالفوه ، ومنهم الحسن بن علي وشقيقه . (دخل معاوية الكوفة ونال بيعتها ، ودخل الحجاز واسمى خليفتها ، حتى سمى الناس العام الذي حصل فيه على بيعة الأمصار (بعام الجماعة)[2] .

قلت : ليس في ولاية معاوية ـ من حيث هي ولاية ـ شيء فليست هي بذاتها ملوكية ولو أنه سمى نفسه على مارواه اليعقوبي « أول الملوك »[3] و« اتخذ لنفسه الدور والقصور ، وأحاط نفسه بالحجّاب والخدم »[4] فقد اعتاد على ذلك قبل أن يصبح خليفة (أميراً) للمؤمنين ، وقد رآه عمر بن الخطاب أثناء زيارته للشام ولم ينكر عليه ذلك .

الإيحاءات الأولى بتوريث يزيد :

لكن . . بدأ التحول الخطير في الخلافة ، عندما بدأ معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد . وهناك جملة ملحوظات لا بد من إبدائها في هذا الصدد .

أولاً : إن مظاهر الملك التي نقلها معاوية عن الروم أثرت في نفسه تأثيراً قوياً . . فهو بدأ يحس ـ كما كانت العادة عند الروم وفارس وملوك الأرض في ذلك الحين ـ أن الملك ومظاهره ينبغي أن ينتقل إلى ابنه بمجرد وفاته ، فهو أحق

---

(1) وصدق رسول الله ﷺ حين يقول (لتنقضنَّ عُرى الإسلام عروة عروة ، أولها نقضاً للحكم وآخرها نقضاً للصلاة) .

(2)(3)(4) النظم الإسلامية ـ صبحي الصالح ٢٦٧ .

الناس به ، ولو لم يكن أهلاً له . . ففكرة (التوريث) هذه فكرة وافدة على معاوية إلا أنها وجدت مرتعاً خصباً في نفسه !!

ثانياً : يبدو أن معاوية قد وجد في المناداة بالحسن بن علي خليفة ، مكان أبيه ، بعد استشهاد علي سابقة شجعته على إعلان مبدأ (التوريث) وأخذ البيعة لابنه يزيد . .

يقول الدكتور أحمد الشلبي « والذي لا شك فيه أن بني هاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة الهرقلية في الحكم الإسلامي »[1] .

وتظهر صحة هذا الرأي في تسلسل الأئمة ، عند الشيعة ، وحصرهم في عائلة علي دون سواها . . بقطع النظر عن الحجج التي يوردها هؤلاء في هذا الصدد .

ثالثاً : بدأت فكرة المبايعة ليزيد سنة ٤٩ هـ ، وكان الذي بدأها المغيرة ابن شعبة ، ويروى أنه لما أحسّ أن معاوية ينوي عزله عن الكوفة قصد دمشق وقابل يزيد وقال له : ذهب أعيان أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذووا أسنامهم ، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم . وأخبر يزيد أباه بذلك الرأي ، ووصفه بأن الطريق لحقن الدماء ولجمع الكلمة[2] .

البيعة ليزيد أخذت بالقوة والإكراه :

ولا بد من التنويه إلى أن البيعة لم تعط ليزيد ـ خاصة من كبار المسلمين ـ إلا بالقوة والإكراه . ولقد قام ابن أبي بكر عبد الرحمن في المدينة ينكر أخذ البيعة ليزيد ويقول « **ما الخيار أردتم لأمة محمد ،ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل** » . وكلام عبد الرحمن هذا

---

(١) التاريخ الإسلامي (أحمد الشلبي) جزء ٢ ص ٤٤ .

(٢) التاريخ الإسلامي جزء ٢ ص ٤١ .

يكشف لنا قضية هامة ، فالإنكار محصور فقط في تعيين يزيد بن معاوية خليفة مكان أبيه مما يوجد الهرقلية في التفكير السياسي في الإسلام . أما مبدأ التعيين فقد وافق عليه كبار المسلمين وأباحوه لمعاوية نظراً للظروف الحرجة التي مرت بها الدولة الإسلامية في ذلك الحين ، فقد كتب معاوية لواليه على المدينة يقول له : إني كبُرتْ سني ، ورقّ عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي ، وقد رأيت أن أتخذ لهم من يقوم بهذا الأمر بعدي ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك ، فلما أخذ معاوية موافقتهم على مبدأ التعيين أعلن اسم يزيد وطلب البيعة له .

هنا بدأ الصراع أو بدأ التحول في التاريخ الإسلامي ، أو ـ كما يقول الأستاذ الندوي « الحد الفاصل بين الكمال والزوال . . الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين »[1] فالملاحظات التي أبديناها سابقاً أخذت تتفاعل في نفسية معاوية وتتأكد حتى أساء الاختيار للمسلمين ، ولذلك قال عبد الرحمن بن أبي بكر (ما الخيار أردتم لأمة محمد . .) .

اختيار خلف سيء سبب الانحراف :

ويرى الدكتور أحمد الشلبي أن معاوية (لم يكن يقصد الخير للمسلمين في تعيينه ابنه يزيد بقدر ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة لابنه ، وهذا مما يؤخذ عليه ، ولو كان يريد الخير للمسلمين لاختار من بني أمية من هو أصلح من يزيد[2] هذا ان كانت الضرورة تفرض ضرورة اختيار أموي لتلك المرحلة العصيبة بعد معاوية[3] كما ذهب الدكتور شلبي .

إذن فليس اختيار الخلف هو سبب الانحراف ، وهو أمر كان في الخلافة

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢٢ .

(٢) التاريخ الإسلامي ص ٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٥ .

الراشدة[1] إنما إساءة الاختيار عن عمد ، وحمل الناس بالإكراه على الخضوع لهذا الانحراف والاختيار ، فعندما اختار معاوية يزيد ثار العلماء في وجه يزيد باعتباره ابناً لمعاوية (فكلما مات هرقل قام هرقل) على حد تعبير عبد الرحمن بن أبي بكر . فلقد خاف هؤلاء أن تتأكد على الزمن فكرة الهرقلية والوراثية في أسلوب الحكم . . وكذلك كان . .

ثورة عبدالله بن الزبير المسلحة وثورة ابن عبد العزيز السلمية :

بيد أن الانحراف لم يمر بسهولة ، فقد واجهته إرادة صلبة من العلماء وعامة المسلمين ، رغم الإكراه والقوة . . حتى إن عبدالله بن ا لزبير استطاع بثورته أن يوجد خلافة بقيت بضع سنين ، واعتبرها بعض المؤرخين خلافة ذلك الزمن ، واعتبر بني أمية خارجين عليها . . فلما اعتزل معاوية الثاني الحم دون أن يعين خلفاً له ـ على عادة جا.ه وأبيه ـ[2] (اختلفت كلمة بني أمية فيما بينهم ، واختلف الناس عليهم ، فأوشك ملكهم ان يضيع . ويروى أن مروان بن الحكم ـ الذي آل إليه الحكم ـ نفسه كان على وشك أن ينطلق لابن الزبير فيبايعه .

ابن الزبير خليفة بدل مروان عبد الملك خليفة من يوم موت ابن الزبير ؟

« وكانت حالة ابن الزبير في ذلك الوقت في تقدم واضح ، فقد دان له الحجاز وتبعه أهل الكوفة والبصرة ـ وكان عبدالله بن زياد قد أخلاهما وفرّ تحت ضغط الأحداث ـ كما تبعه أهل الجزيرة وأمراء الشام ، ولم يبق على الولاء لبني أمية إلا الأردن ، وتلك الحالة التي حققها عبدالله بن الزبير أو تحققت له جعلت بعض المؤرخين يرونه خليفة ذلك العصر ، ويعد مروان بن الحكم متمرداً عليه ، ولا يعترف له بخلافة كما لا يعترف بخلافة عبد الملك إلا من

(١) تفصيل ذلك في القسم الثاني من هذا الكتاب ,وفيه مناقشة لموضوع الخلافة والاختيار .

(٢) يروى أنه خطب الناس فقال : « إني قد ضعفت من امرك ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » وهذا يؤكد عمق الشورى وسطحية الهرقلية عند مسلمي ذلك العصر .

يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة عليه »[1] .

ولئن استعاد بنو أمية ملكهم من جديد ، وتوارثوه دون المسلمين ، إلا أن أحدهم رفض الخلافة التي آلت إليه عن طريق الهرقلية ، فأعاد الأمر إلى المسلمين ـ كمعاوية الثاني ـ ذلك هو عمر بن عبد العزيز الذي قال : (أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلب له ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لكم)[2] .

وكانت هذه هي المحاولات الأخيرة ـ على صعيد رسمي ـ لمقاومة الانحراف . ثم ـ بعد عمر ـ ثبت الانحراف في أسلوب الحكم ، وغدت الهرقلية أمراً متعارفاً عليه في مختلف العصور ، وكان ذلك سبباً هاماً في تخلف دولة الإسلام .

الدعوة العباسية وميراث الخلافة :

وعندما ظهرت الدعوة العباسية وزال حكم الأمويين أذاع بنو هاشم أنهم أولى بميراث الرسول من العلويين ـ نسبة لعلي زوج فاطمة ـ لأن جدهم عم الرسول ، ولا ينحدر الميراث إلى ابن العم مع وجود العم ، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة ، وقد قال شاعرهم في ذلك :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الأجداد[3]

فمسألة الحكم غدت مسألة ميراث وورثة . . ليس إلا ! فتأمل ؟

« ولقد أصبحت الخلافة فى العصر العباسي وراثية تماماً » ووجهت في هذه

(١) التاريخ الإسلامي جزء ٢ ص ٥٠ ـ ٥١ نقلاً عن تاريخ الخلفاء للسيوطي والعقد الفريد .

(٢) راجع في تولية عمر وما رافقها من أحداث كتابنا (عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء) ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) التاريخ الاسلامي ـ محمد الشلبي جزء ٢ ص ١٣ .

المسألة أقسى ضربة إلى تقاليد العرب[*] حين تجاهل العباسيون مشكلة السن فعهدوا بالخلافة إلى الذين لم يبلغوا سن الرشد : كما عهد الرشيد إلى ابنه الأمين ، وكان عمره خمس سنوات فقط ، وإلى ابنه المأمون ولم يكن عمره يزيد على ثلاثة عشر عاماً ، بل أسندوا ولاية العهد إلى أكثر من واحد كما فعل المهدي والرشيد والمتوكل[1] . . .

الإمام مالك وظلم الخلفاء :

ولا بد ، ونحن في صدد الانحراف ، أن نؤكد أن الهرقلية هذه وإن ثبتت ورسخت في التعامل والواقع إلا أنها بقيت في أذهان الجميع وخاصة العلماء الفقهاء انحرافاً ، ولم تعتبر في يوم من الأيام أصلاً ، وقد وجدنا من يكتب - كالماوردي وابن خلدون ولو في عصور متأخرة فضلاً عن فقهاء المذاهب المعروفين - عن الدولة والخلافة ، وكيف يختار الخليفة ، والنصوص الشرعية التي تحكم هذا الاختيار وما شابه . . ووجدنا أيضاً من يقول بظلم الخلفاء - كالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، فقد سئل عن قتال الخارجين على الدولة أيجوز ذلك ؟ فقال : دعهم ينتقم الله من ظالم لظالم ثم ينقم من كليهما[2] . .

الانحراف يضفي هالة على شخص الخليفة :

ولا بد ، ثانياً من الإشارة إلى أن هذا الانحراف في أسلوب الحكم قد أضفى هالة خاصة على الخلفاء الملوك . . فقد غدا منصب الخليفة منصباً شخصياً مما أدى إلى تجميع العلاقات والمصالح حول شخص الخليفة لا حول مركز الخلافة ، وبمعنى آخر : إن الخليفة الملك راح يبذل ما في وسعه ليحافظ على بقائه ، وليمهد لانتقال السلطة من بعده إلى ولده فكان يسترضي الأقرباء

(*) نخالف الدكتور صبحي الصالح في اتجاهه ، فالضربة لم توجه إلى تقاليد عربية أو غير عربية ، إنما إلى المنهج الإسلامي في الحكم . . فهو الذي يحذر من ولاية الصبيان كما في الحديث النبوي ، وهو الذي يمنع أصلاً ارتقاء مثل هؤلاء سدة الحكم .

(١) النظم الاسلامية ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . للدكتور صبحي الصالح

(٢) الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز بدري نقلاً عن (ضحى الإسلام) وكتاب (مالك لأبي زهرة) ص ١٠٤ .

ووجهاء الناس وربما بعض العلماء . . ولو كان هذا - بل هو كذلك حتماً - على حساب بيت مال المسلمين !

على أثر تجديد البيعة لعمر بن عبد العزيز « احتجب عن الناس ثلاثة أيام متواليات ، لا يدخل عليه أحد ، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجند والعرب ببابه ينظرون ما يخرج عليهم ، وكان عمر خلال هذه الأيام يعمل ليلاً ونهاراً مع وزيره مزاحم ، يجمعان سجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والأموال التي تجري عليهم ، ويدرسانها دراسة وثيقة على ضوء التشريع المالي في الإسلام ، وكم كان عجب عمر كبيراً عندما أحصى مجموع قطائع وعطيات الأمراء فبلغت عنده نصف ما في بيت مال المسلمين أو ثلثيه ، فما كان منه إلا أن نادى بصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، وخرج إليهم وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد فإن هؤلاء - أي الخلفاء قبله - أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها ، وإني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب ، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي . اقرأ يا مزاحم فيخرج سجلاً سجلاً وعهداً عهداً وكتاباً كتاباً ثم يقرؤه ، فيأخذه عمر وبيده آلة حادة فيمزقه ، وما زالا حتى حان الظهر ونادى المؤذن للصلاة ، ورد جميع ذلك إلى بيت المال »[1] .

فعمر بن عبد العزيز لا يهمه تجميع القوى حول شخص الخليفة ، وإنما تدعيم الخلافة نفسها والقيام بواجبها حتى تضحى هيئة معنوية كما كان كذلك في عهد الخلافة الراشدة ، لا سلطة شخصية كخلافة الأمويين .

عوامل التحلل في كيان الدولة كما يراها الإمام البنا :

إن نقض الحكم أدى إلى الانحراف البشع - الذي رأينا - وهذا الانحراف أدى إلى انحراف آخر . . ثم تتالى الانحراف وتعاظم . . ولقد لخص الإمام الشهيد حسن البنا عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية في رسالته « بين

---

(١) عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء للمؤلف ص ٤٤ - ٤٥ .

الأمس واليوم» ، فجاء شاملاً وافياً ، فقال رحمه الله :

(ومع هذه القوة البالغة والسلطان الواسع ، فإن عوامل التحلل قد أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة القرآنية وتعظم وتنتشر شيئاً فشيئاً ، حتى مزقت هذا الكيان ، وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار ، وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية ، وتركت وراءها في كلتا المرتين أمماً مبعثرة ودويلات صغيرة تتوق إلى الوحدة ، وتتوثب للنهوض ، وكان أهم هذه العوامل :

أ ـ الخلافات السياسية والعصبية ، وتنازع الرياسة والجاه ، مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك ، والتزهيد في الإمارة ، ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول ﴿ ولا تَنَازَعُوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين ﴾[1] . ومع الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده في القول والعمل ، والتنفير من حب الشهوة والمحمدة .

ب ـ الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال الى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ والجمود والتعصب للآراء والأقوال ، والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي حتى قال رسول الله ﷺ « ما ضلَّ قومٌ بعد هُدى كانوا عليه إلاّ أتوا الجدل » .

جـ ـ الانغماس في ألوان الترف والنعيم ، والإقبال على المتعة والشهوات ، حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم ، مع أنهم يقرأون قول الله تبارك وتعالى : « وإذا أردنا أن نُهلك قرية

(1) الأنفال الآية ٤٦ .

أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً ﴾[1] .

د ـ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة ، والديلم تارة أخرى ، والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه مع أنهم يقرؤون قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا إيُّها الذينَ آمنوا لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبَالا ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ قد بيَّنا لكم الآيات إنْ كنتم تعقلون ﴾[2] .

هـ ـ إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون واكتناه أسرار الخلق والسير في الأرض ، ويأمرهم أن يتفكروا في ملكوت الله ﴿ قلِ انظرُوا ماذا في السموات والأرض ﴾[3].

و ـ الغرور بسلطانهم ، والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم عند غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة ، وأخذتهم على غرة ، وقد أمرهم القرآن باليقظة ، وحذرهم مغبة الغفلة ، واعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل ﴿ ولقد ذرَأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ولهمْ أعينٌ لا يبْصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون ﴾[4] .

ز ـ الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ، مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة

(1) الإسراء الآية ١٧ .
(2) آل عمران الآية ١١٩ .
(3) يونس الآية ١٠١ .
(4) الأعراف الآية ١٨٩ .

الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد ، قال القرآن الكريم ﴿ يا إيُّها الذينَ آمنو إنْ تُطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ يا أيَّها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [١] .

تحريفات الحياة الإسلامية كما يراها الندوي :

وللأستاذ أبي الحسن الندوي أيضاً نظرات في (تحريفات الحياة الإسلامية) كما أسماها في كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » فقال [٢] تحت عنوان « فصل الدين عن السياسة » .

« وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فإن هؤلاء - أي الخلفاء الأمويين والعباسيين حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين ، فاستبدوا بالحكم والسياسة ، واستعانوا - إذا أرادوا واقتضت المصالح - بالفقهاء ورجال الدين كمبشرين متخصصين ، واستخدموهم في مصالحهم ، واستغنوا عنهم إذا شاؤوا ، وعصوهم متى شاؤوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين ، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة وملكاً عضوضاً »[*] . .

وتحت عنوان « النزعات الجاهلية في رجال الخلافة » قال :

النزعات الجاهلية في رجال الخلافة :

« ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والخلق ، بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع . فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ، ورفعت رأسها ، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب ، وانغمسوا

(١) الآية ٤٩ من آل عمران . و بين الأمس واليوم للإمام حسن البنا ص ٨-٩-١٠-١١١ .
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢١ وما يليهما .
(*) ص ١٢٥ من المرجع السابق .

في الملذات والشهوات ، واستهتروا استهتاراً . ونظرة في كتاب « الأغاني » وكتاب « الحيوان » للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو . وتهافت على الملاهي واللذات ، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها . . » [١] .

ثم يذكر أن هؤلاء الخلفاء والحكام كانوا يسيئون (تمثيل الإسلام) وإنهم مع العلماء والمفكرين لم يحتفلوا (بالعلوم العملية المفيدة) احتفالاً صحيحاً . . وإن البدع والضلالات قد حجبت (توحيد الإسلام النقي) . .

وهكذا . . كلما تأكد الانحراف على الزمن ، كلما انحسر الاسلام عن الوجود الحياتي للمسلمين ، حتى أضحى هذا الوجود جاهلياً في التصور والسلوك ، ليس له من الإسلام إلا المسحة الظاهرة ، وإلا الأشكال التي لا تسمن ولا تغني من جوع . .

مواجهة العلماء للانحراف :

بيد أن هذا الانحراف - وهو في اشتداده وتأصله - قد واجه مقاومة صلبة اتخذت شكلاً لها صيحات واعية أو تحديات لاهبة . .

فعلاوة على ما ذكرناه ، من مواجهة الصحابة للقيصرية الملوكية فقد واجه - على مر الزمن - علماء أبرار الانحراف في الحكام ، مما جعلهم آيات في البطولة والثبات .

حسن البصري مع والي العراق :

فهذا الحسن البصري يواجه عمر بن هبيرة والي زياد بن معاوية على العراق ويصيح به (. . وحقّ الله ألزم من حق أمير المؤمنين علي ، والله أحق أن يطاع ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . . فاعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقاً للكتاب فخذ به ، وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه .

(١) ص ١٢٥ من كتاب الندوي .

يا ابن هبيرة :

اتق الله ، يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ، ويخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقدم على ربك ، وتنزل على عملك .

يا ابن هبيرة :

إن الله ليمنعك عن يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وإني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . .[1]

سعيد بن جبير وحطيط الزيات في مواجهة الحجاج :

وفضلاً عن سعيد بن الجبير الذي عاند الحجاج ورفض الانصياع إلا للحق ، فقد حكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سئلتُ لأصدقن ، وإن ابتليتُ لأصبرنّ ، وإن عوفيتُ لأشكرنّ قال : فما تقول فيَّ ؟ قال : أقول : إنك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم ، وتقتل بالظنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول : إنّه أعظم جرماً منك ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه قال الحجاج : ضعوا عليه العذاب[2] . . حتى استشهد . .

أما الإمام الأوزاعي فقد وافى أبا جعفر المنصور فقال له :

الإمام الأوزاعي وأبو جعفر المنصور:

يا أمير المؤمنين : حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أي وال مات غاشاً لرعيته حرَّم الله عليه الجنة يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين . .

(1) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي الجزء الثاني ص ٣٤١ .

(2) الإحياء الجزء الثاني ص ٣٤٠ .

يا أمير المؤمنين : قد كنت في شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ـ أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم . وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه ؟! يا امير المؤمنين حدثني مكحول . . قال كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : يا محمد ، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً . فكيف بمن شقق أستارهم ، وسفك دماءهم ، وأجلاهم عن بلادهم ، وغيبهم الخوف منه . .

يا أمير المؤمنين : إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك . . يا أمير المؤمنين : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيتُ أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟! وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا ضعيف العقل ، أريب العقد ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يخاف منه حرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . .

يا أمير المؤمنين : أشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه .[1]

سفيان الثوري وهارون الرشيد:

ولقد وصلت الجرأة بسفيان الثوري أن يرد على كتاب هارون الرشيد الذي أرسله إليه يدعوه فيه إلى موافاته ويعده (الجوائز السنية) فيقول في رده :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان .

(1) الاحياء الجزء الثاني ص ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٥٥ .

أما بعد . . فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه ، وأنفذته في غير حكمه . . يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . . واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً . يا هرون : قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستراً دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون ، يشربون الخمور ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس !! فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى احشروا الذينَ ظلموا وأزواجهم ؟ أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك[1] والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . .[2] .

* * *

لماذا لم تقم ثورات منظمة تقضي على الانحراف ؟

ولعل سؤالاً هاماً ينتصب أمام المدقق في التاريخ ، لماذا لم تقم ثورات منظمة قضت على الانحراف وأعادت الأمر إلى نصابه ؟ ونعتقد أن مرد ذلك يعود إلى ما يلي :

أولاً : إن اقتتال المسلمين في صدر الإسلام بين علي ومعاوية ، ثم بين الزبير والأمويين ، وغير ذلك من ثورات صغيرة ومقاومات على صعيد

---

(١) من حديث (ما من وال يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتي به يوم القيام مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله . .) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني ، انظر الاحياء ص ٣٤٤ الجزء الثاني .

(٢) من رسالة سفيان إلى هارون الاحياء الجزء الثاني ص ٣٤٨ .

المدن ، ثم ما جرى أثناء الثورة العباسية كرّه عند علماء المسلمين خاصة ، كل اقتتال داخلي ، فنفروا من مقاومة الظلم والانحراف ، وآثروا الإخلاد إلى المقاومة السلبية الفكرية لما رأوا من نتائج الاقتتال السابق وآثره السيئة في مختلف وجوه الوجود الإسلامي .

ثانياً : لقد نشأت عبر الزمن ـ وخاصة في العصر العباسي ـ حركات فكرية وفرق مذهبية وصوفية استنزفت جهود العلماء والفقهاء وعامة الناس . فأضاعت في الجميع ـ حاشا بعض العلماء ـ همة الجهاد والكفاح ، وأقنعتهم بضرورة مسايرة السلطان والسكوت عن المنكرات ، إذ أن أوقاتهم لم تعد تتسع لمعالجة قضية الانحراف فهي مشبعة بترف كلامي أو جدل مذهبي أو فلسفي .

ثالثاً : لقد تشوّه في نفوس الناس التصور الإسلامي وخاصة فيما يتعلق بالجانب السياسي منه ، أي ما خص الخليفة والحكام . وتعاقبت الأجيال والتشوّه يزداد ، حتى كاد يقتنع الناس بأنه لا حقّ لهم تجاه « السلطان » .

رابعاً : ما تقدم حال دون إيجاد حركة منظمة تعتمد المطالبة القوية أساساً لها على ـ حد تعبير ابن خلدون ـ أو تعمل على تغيير الواقع ومقاومة الانحراف والعودة بالأمة والناس إلى المكانة التي أرادها الله لهم .

خامساً : ومع هذا فإن ابن خلدون يحدثنا عن بعض ثورات دينية قامت في بغداد بعفوية دون إعداد وتنظيم مما جرّ عليها الفشل والنقد اللاذع من ابن خلدون نفسه ، وذلك في معرض حديثه عن مقومات وأسلوب التغيير .

ابن خلدون ومقومات الثورة:

قال (ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء ، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون

والتغيير :

إلى القيام على أهل الجور من الأمراء ، داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف، رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين ، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم ، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيِّرْهُ بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر - كما قدمناه - . . . فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب ، وكان فيه محقاً قصرّ به الانفراد من العصبية فطاح في هوة الهلاك ، وأما إن كان من المتلبسين في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق ، وتنقطع به المهالك ، لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ، ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة .

ابن خلدون يضرب المثل بثورة سهل بن سلامة الانصاري في بغداد :

« وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق . . فوقع الهرج ببغداد ، وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون ، وقطعوا السبيل ، وامتلأت أيديهم من نهاب الناس . . فتوافر أهل الدين والإصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم ، وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابه خلق ، وقاتل أهل الزعرة فغلبهم ، وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ، ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم ، علق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فأتبعه الناس كافة من بين

شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ، ونزل قصر طاهر ، واتخذ الديوان ، وطاف ببغداد ، ومنع كل من أخاف المارة . . وقال له خالد الدريوس : أنا لا أعيب على السلطان ، فقال له سهل : لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان ، وذلك سنة إحدى ومئتين ، وجهز له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره ، وانحل أمره سريعاً ، وذهب ونجا بنفسه . ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من « الموسوسين » يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ، ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من « العصبية » ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم[1] .

* * *

اشتداد الانحراف، وبداية الانفصال، وظهور السلطنة العثمانية :

واشتد الانحراف . . وآل الحكم إلى أناس لم يتذوقوا حلاوة القرآن من فرس وأتراك . . وراح هؤلاء يلعبون بالخليفة ، وبمركزه وبكل شيء .

وبدأ انفصال الولايات عن بعضها . . فاستبد كل أمير بأمارته ، وكل وال بولايته ، وتمزع العالم الإسلامي إلى أجزاء متفرقة متبعثرة ، تعرضت - فيما بعد - إلى غزو صليبي فاجر . . ثم إلى زحف مغولي ماكر . . وسقطت بغداد ١٢٥٨ وانتقلت الذبالة الباقية من منصب الخلافة الاسمي ، إلى مصر[2] .

ثم كانت السلطنة العثمانية . . .

وبينما كانت تتقدم في آسيا الصغرى ون [illegible] على أسوار القسطنطينية فاتحة منصورة ١٤٥٣ ، كانت الأندلس تئن تحت حروب دامية وإخراج نكد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٣ - ١٣٤ .
(٢) انظر تفصيل ذلك في الفصل القادم الهجوم الماكر .

(سقطت غرناطة ١٤٩٢) ومع هذا . . « فالعالم الإسلامي الـذي كان قد استولى عليه اليأس من جراء الكوارث التي حلت به في الشرق والغرب . شعر أثر هذه الانتصارات (احتلال القسطنطينية) التـي أحرزهـا العثمانيون على التوالي ، سواء في البر أو في البحر ، بحياة جديدة ردت إليه الآمال ، ورفعت رأسه كرة أخرى[١] . . وآلت الخلافة الاسمية إلى بني عثمان فأصبـح هؤلاء السلاطين خلفاء . . يتوارثون الخلافـة توارث المتـاع . . كما فعـل من قبـل الأمويون والعباسيون والآخرون .

وانحرف العثمانيون كما انحرف أسلافهم ، وأخذت الذبالـة البـاقية ، الرمز الروحي ، المنصب الاسمي للخلافـة ، يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى ألغـاه أتاتورك ، صنيعة الاستعمار ، في الساعة السادسة والنصف من صباح ٢ آذار سنة ١٩٢٤ .

إن الخلافة ـ على ما كان فيها من ضعف وانحـراف ـ رمـز التجمـع له معقباته في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . . وعندما نلغي هذا المنصب نكون قد قاومنا الانحراف بانحراف أشد .

ونحن هنا لا ندافع عن العثمانيين ولا عن الملوكية العثمانية ، فرأينا حتى في الخلافة الأموية والعباسية معروف . . ولكن هذا الـرأي لا يعنـي التخلي عنها أو نبذها ، بل هما ـ مع كل ما فيهما من ضلال وانحراف ـ حق نحافظ عليه ، ونعتبره جزءاً من حضارتنا .

الإسلام لا يرضى بواقـع الخلفـاء المذل . . ولكن . !!

إن الإسلام بمبادئه وتنظيماته وشموله لا يرضى بواقع الخلفاء المذل ، وبما آل إليه الأمر من ضعف وهوان وتخاذل وانحراف . . إلا أنه أيضـاً لا يرضى بالغاء منصب الخلافة ، وبإزالة معالمها من الوجود .

---

(١) العرب والترك محمد جميل بيهم ص ٨٠ .

والخلفاء ، كمـا يقـول فيهم الإمام الحسن البصري (هـم يلـون من أمورنا الجمعة والفيء والثغور والحدود . والله لا يستقيم الدين إلا بهم ، وإن جاروا وإن ظلموا ، والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسدون)[١] .

هناك إذن اعتبارات إسلامية عليا ، لا يجوز لنا إلغاء منصب الخلافة مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد أدرك المسلمون في كل زمان هذا الأمر . . « إن خلفاء بغداد كانوا قد خسروا سلطتهم ولاسيما في خارج العاصمة ، ولكن الخلفاء وقتئذ كانـوا يحتفظون بسلطة روحية يعترف لهم بها أولئك المتغلبون فضلاً عن سائر العالم الإسلامي »[٢] .

وهذا الشعور ، هو نفسه كان سائداً في العالـم الإسلامي قبـل إلغـاء الخلافـة حتـى في أولئـك الـذين ثاروا مع مصطفى كما ضد الاحتـلال . . فجميعهم كانوا يرفضون حتى مجرد التفكير في إلغاء الخلافة ، فكيف بالإلغاء ذاته .

أتاتـورك يخـادع أعوانـه بعـد أن اشترطـوا عليه أن تكون الخلافـة فوق كل شيء :

يحدثنا الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش في كتابه (مصطفى كمال المثل الأعلى) : أن الذين تعاونوا معه اشترطوا عليه شرطاً واحداً على الرغم من ثقتهم به ، وهو ألاّ يقوم بعمل من الأعمال فيه مساس بحقوق السلطان أو فيه تجريح لعواطفه وأكدوا له أنه ينبغي أن تكون الخلافة فوق كل شيء ، وأن لا تمس السلطنة بضير ، فأكد لهم ما يريدون لأنه لم يجد مفراً من تقديم هذه التأكيدات)[٣] .

---

(١) مالك لأبي زهرة حاشية ص ٥٢ .
(٢) العرب والترك ، محمد جميل بيهم ص ٦٥ .
(٣) مصطفى كمال ص ٢١٢ عرّب هذا الكتاب إلى العربية كامل صموئيل مسيحه ، ونشرته المكتبة الأهلية في بيروت سنة ٩٣٣ وكتب مترجمه عن المؤلف ما يلي « وقد اعتمد المؤلف الألماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية ، كما أنه ترجم مذكرات مصطفى كمال ذاتها ، وقد اعتمد على المعلومـات =

ويشير الكاتب إلى أن قضية إلغاء الخلافة كانت أمراً منتهياً عند مصطفى كمال ، ومع ذلك فقد أعطاهم ما يريدون من العهود والمواثيق . .

« ولقد أثارت قضية الخلافة - أي إلغاؤها - اهتمام العالم الغربي ، بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين أنفسهم »[1] .

الصليبية واليهودية وراء إلغاء منصب الخلافة :

والحقيقة :

أن الصليبية العالمية واليهودية كانتا منذ قرون تعملان منفردتين في البداية ومتعاونتين في النهاية للقضاء على هذا الرمز الباهت ، الخلافة الاسمية الإسلامية . .

فأوروبا التي انهزمت أمام صلاح الدين الأيوبي استيقظت فجأة على ضربات محمد الفاتح ، فاهتزت وارتاعت ، وقامت قيامة الغرب ، فتنادى لاستئناف الحروب الصليبية ، ثم ما إن ذاع نبأ موت السلطان الفاتح حتى اعتبرت أوروبا موته بمثابة السلامة من خطر كان محققاً . وبلغ سرورها لهذا الخبر - حسب رواية لافاليه Lavallée أن قداسة البابا أمر بأن يعتبر يوم وفاة السلطان يوم عيد بأن تقام صلوات الشكر خلال ثلاثة أيام »[2] .

ومن ذلك اليوم . . وأوروبا تستأسد يوماً بعد يوم . . وتنتظر الفرصة المواتية للانقضاض الأخير .

وفي أثناء الحرب الأولى ، وبعد أن دخل الجنرال اللنبي إلى دمشق ، وقف بكل وقاحة أمام قبر صلاح الدين ليقول له : الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين قم فقاتل . .

= الكثيرة التي جمعها من أصدقائه الأتراك ، فجاء كتابه تحفة تاريخية نادرة ومثلاً أعلى للكتابة بأمانة وإخلاص عن سير الرجال والعظماء » ص ٥ .

(١) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦٣ .

(٢) العرب والترك محمد بيهم ص ١٠٢ .

وقبل ذلك ، على ما يبدو ، كانت اليهودية العالمية قد قررت إنهاء الخلافة في استانبول انتقاماً من السلطان عبد الحميد الذي رفض أن يبيعهم فلسطين ، وتنفيذاً لبروتوكولات حكماء صهيون[1] . وبدأ التعاون عميقاً وثيقاً بين اليهودية والصليبية ، وكانت باريس وسالونيك مركزي هذا التعاون .

ففي باريس نشأت جمعية الاتحاد والترقي ، وكان لها فروع في برلين وفي سالونيك . . « وكان فرع باريس منظماً تنظيماً رفيعاً ، وكان برنامجه متطرفاً ، ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة ، وأخيراً استطاع فرع سالونيك أن ينتصر على الفروع الأخرى إذ بدأ أعضاؤه يعدون العدة للثورة .

« وكانت المحافل الماسونية . . وعلى الأخص المحفل الإيطالي الأكبر في سلانيك ترحب بأعمال هذه الجمعية وتنتصر لها انتصاراً أدبياً ، وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل الماسونية التي يستحيل على الجواسيس أن يصلوا إليها مهما بذلوا من جهد ، وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الاتحاد والترقي ، وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوي نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من (الأحرار) كما أن أعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال باستانبول بل في التقرب من القصر ذاته »[2] .

وخطورة سلانيك تكمن في جماعة الدونمة . . وحتى نعرف من هم يجب

---

(١) تنبأ العالم الروسي سرجي نيلوس الذي نشر « بروتوكولات صهيون » لأول مرة في روسيا عام ١٩٠٥ بزوال الخلافة في استانبول ، وقيام الثورة البلشفية في روسيا ، وانهيار عروض ملكية في أوروبا - راجع مقدمة الكتاب للأستاذ محمد خليفة التونسي ص ٣٣ الطبعة الثالثة حيث جاء ما نصه : ومنها نبوءته بسقوط الخلافة العثمانية على أيدي اليهود قبل تأسيس إسرائيل .

(٢) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

أن نسمع إلى محمد جميل بيهم في كتابه « الترك والعرب » حيث يقول : (هذا ويرد بعض المراقبين الفتور الديني الذي بدأ من قبل ويبدو الآن * في الأوساط السياسية التركية إلى جماعة (الدونمة) أولئك الذين تآمروا على السلطان عبد الحميد الثاني وقاموا في عداد من قام بالانقلاب العثماني باسم « جمعية الاتحاد والترقي » التي استأثرت بالحكم حتى زوال السلطة . (والدونمة) هم يهود كانوا يقطنون في ولاية سلانيك ، اعتنقوا الإسلام بعد الفتح العثماني التماساً للحظوة والنفع أسوة بيهود إسبانيا الذين تنصروا في عهد فرديناند واليزابيت هرباً من مظالم مجلس التفتيش .

« وقد بقي ولاء الدونمة إلى اليهودية العالمية محفوظاً في قلوبهم إبان عهد السلطنة وبعدها ، وكان يبدو في مناسبات كثيرة ولاسيما في المناسبات التي لها صلة باليهود . وآية ذلك ما حدث منذ نيف وعشرين عاماً أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في مدينة « بال » وهي معقل اليهود في أوروبا الوسطى ، فقد كان رشدي أراس وزير الخارجية التركية يومئذ موجوداً في سويسرا ، فأفضى بحديث إلى مجلة سويسرية لمناسبة هذا المؤتمر جاء فيه : « إنه مسلم من أبوين مسلمين ، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً أن يعلن أنه ينحدر من صلب أجداد يهود ، وإنه يعطف على الصهيونية وأهدافها »[1] .

أتاتورك يكشف نفسه :

إن الأسباب جميعاً قد تهيأت .. ولا بد من الرجل القائد ، فكان مصطفى كمال من الدونمة السلانيك .

يصف مصطفى كمال في مذكراته والده فيقول :

« كان .. رجلاً حر الفكر ، يقاوم رجال الدين ، ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب ويتشبث بها ، فكانت أمنيته أن يجدني في عداد تلاميذ

(1) العرب والترك ص ١٩٨ - ١٩٨ .

مدرسة « عالمية » دنيوية لا « دينية »[2] .

ويقول : « إنه كان شديد العناية بأناقة ثيابه . يريد أن يظهر بجلاء للناس أنه - وإن كان ضئيل الثروة - فهو جنتلمان ، لا يقل شأناً عن أرقى الأوروبيين .. وكان من ناحية أخرى يريد أن يعتقد الناس فيه أنه أوروبي في مظهره الخارجي كما هو أوروبي في أفكاره وميوله ، وأنه ودع الثياب التركية القديمة » .

أما مصطفى كمال نفسه فقد دخل إلى المدرسة الحربية في استانبول بعد أن كان « إبان العطلات المدرسية في سلانيك يتلقى الدروس الفرنسية سراً ؟ من رئيس دير ؟ فرنسي يدير مدرسة ، وكان يشدد على تلميذه مصطفى ويعتني به عناية خاصة »[1] .

فلماذا كان يتلقى الدراسة سراً من رئيس دير يدير مدرسة علنية ، وما معنى هذه العناية الخاصة .. ثم لماذا انتقل إلى الحربية في استانبول ؟

هذا ما كشفته به الأيام فيما بعد .. فقد كان عضواً في الاتحاد والترقي .. ثم أصبح قائداً (غازياً) محرراً للبلاد .. ثم أصبح رئيساً .. فتمكن من إلغاء الخلافة والسلطنة .

بدأ مصطفى كمال حياته العامة بسيطاً ، ثم ضخمته الأحداث إلى أن استطاع تشكيل مجلس وطني في أنقرة التي جعلها مركز نشاطه ومقاومته الاحتلال اليوناني .

الشروط الأربعة ومؤتمر لوزان:

وبفضل الدعم الانكليزي الظاهر والمستتر ألفّ مصطفى كمال حكومة انتقالية ، وسارعت الدول الغربية للاعتراف بها - مع اعترافهم بحكومة

(1) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٧ .
(2) المصدر السابق ص ١٩ .

استانبول - ثم دعيت حكومة أنقرة للمفاوضات في لوازن .

ويقال : إن كرزون وزير خارجية انجلترا ورئيس وفدها لمؤتمر لوزان المنعقد في ٢٠ تشرين الثاني سنة **١٩٢٢** قد وضع للوفد التركي الذي كان يرأسه عصمت أنونو أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي :

١ - إلغاء الخلافة إلغاءً تاماً ، وطرد الخليفة خارج الحدود ، ومصادرة أمواله .

٢ - إعلان علمانية الدولة .

٣ - أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الاسلامية الباقية .

٤ - أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الاسلام بدستور - مدني بحت - وعلق نجاح المؤتمر على هذه الشروط الأربعة ولذلك انفض المؤتمر في ٤ شباط سنة **١٩٢٢** من غير أن يسفر عن نتيجة ، وأعلن إخفاقه ، وعاد عصمت إلى تركيا ، فهرع مصطفى كمال إلى لقائه في (اسكي شهر) حيث عرف منه جميع الأمور[1] . وهذه الشروط كانت إحدى أمنيات مصطفى كمال أو أحد الأمور التي كلف بها منذ زمن بعيد .

فمصطفى كمال يرى - كما يقول الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش - (أن ضرورة خلق الدولة التركية القومية البحتة ، ومراعاة تخومها الطبيعية من الأمور الجلية كل الجلاء . . ولكن خطته التي كان ينوي تنفيذها والعمل بها كانت من الجرأة والاقتحام ما يصعب تصوره في ذلك الحين ، لدرجة أن اضطر مصطفى لإخفاء هذه الأغراض حتى عن رفاقه ؟

« ويعلم الله أنه لو كان قد حدث أقرب الناس إليه في ذلك الزمن عن « الجمهورية » مكان (السلطنة) وتكوين الدولة (الدنيوية) مكان

---

(١) كيف تهدمت الخلافة لعبد القديم زلوم ص ١٨١ وقارن به المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ الصواف ص ١٧٤ .

(الدينية) لما كانوا فهموه ، بل كانوا إذا فهموه يأبون حتماً أن يتبعوه[1] . .

أما وقد ربط مصير تركيا واستقلالها بإلغاء الخلافة . . (هذا الشيء الخيالي الذي (لا معنى له ولا مبرر لوجوده) كما يقول مصطفى كمال[2] فلا بد من تحقيقه ، أي إلغاء الخلافة ، فالاستقلال أهم شيء في الوجود !

وبدأ التحرك . . .

فأجرى انتخابات عامة ، وتدخل تدخلاً سافراً « لتغليب حزبه حزب الشعب على غيره . . حتى إذا عقد المجلس النيابي »[3] فاجأ الجميع باقتراح إعلان الحكم الجمهوري وإلغاء السلطنة . . وأخذ الأعضاء يظهرون تخوفهم من هذه الخطوة الجريئة ، ولكنهم وجدوا أنهم أمام الأمر الواقع ، وأن هذا الهجوم الفجائي قد نجح نجاحاً تاماً . . وبعد مناقشة صورية ؟ وافق الأعضاء على الحكم الجمهوري . . واستقرت الحالة على أن يكون الإسلام دين الدولة ، وأن يكون مصطفى كمال رئيساً للجمهورية[4] .

وحكم مصطفى ا لبلاد حكماً مستبداً ، وأصدر قانوناً يقضي بالموت على الذي يهاجم الجمهورية . . وراح مصطفى ينسق الخطط لإلغاء الخلافة وعلمنة الدولة . .

ولنترك الكلام الآن إلى الكاتب الألماني ميكوش ، ليصف مرحلة الإلغاء وما رافقها :

الماني يصف مرحلة الغاء

« بعد أن تحولت الدولة إلى جمهورية كان من الضروري أن يبت في قضية الخلافة ، ووجد الخصوم الذين لم يرتاحوا لإعلان الجمهورية ولم يطمئنوا

---

(١) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٣ .

(٣) العرب والترك ص ١٧٧ .

(٤) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦٠ .

لازدياد قوة مصطفى كمال أن الأمل الوحيد في التخلص من هذه الحالة إنما الخلافة يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال من ناحية الخلافة .

« وأخذت الصحف التي تصدر في اسطنبول تقاوم الحكم الجمهوري علناً ، ووجد مصطفى كمال أنه من الضروري أن يعمل على إلغاء الخلافة قبل أن يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفاً يكتسح السد المحكم الذي بناه ، وعلى الأخص لأن الخليفة كان موضع احترام ٣٥٠ مليون نسمة من المسلمين الذي يقيمون في ممالك متعددة ، وهو لا يعتمد إلا على الأتراك الذين كانوا لا يزيدون عن أربعة عشر مليوناً . .

« وأعلن مصطفى كمال - بكل صراحة ووضوح - أن وظيفة الخلافة ليست لها قيمة مادية أو سياسية ، ولا مبرر لوجودها . إلا كأثر من آثار الماضي المظلم ؟!!

« وفي أول آذار اجتمع المجلس الوطني . . وكانت تدور الخطبة الافتتاحية حول ضرورة القضاء على الخلافة .

« وأخيراً استطاع مصطفى كمال أن يفوز - في أيام - بالنتائج التي لم تتوصل إليها أوروبا إلا بعد حروب مئة سنة فصل الكنيسة عن الدولة أو الخلافة عن الدولة .

٦,٣٠ صباح
١٩٢٤/٣/٢
ألغيت الخلافة :

« أجل . . في اليوم الثاني وافق المجلس الوطني في الساعة السادسة والنصف صباحاً على إلغاء الخلافة بعد جدال استغرق ساعات الليل كلها ، وطلب من الخليفة وأفراد أسرته مغادرة البلاد في مدة عشرة أيام ، وحرم عليهم الإقامة في تركيا ، وألغيت كل الوظائف ا لدينية ، وأصبحت أوقاف المسلمين ملكاً للدولة . . كما أن المدارس الدينية تحولت إلى مدنية ، وباتت تحت رقابة وزارة المعارف . .

« وقد أثارت قضية الخلافة اهتمام العالم الغربي ، بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين أنفسهم .

« وكان الهنود يؤيدون الأتراك في نهضتهم الوطنية ، ويدافعون عن قضيتهم في انكلترا ، لهذا كان احتجاجهم شديداً على إلغاء الخلافة ، وبذلت الجهود الكبيرة لجعل مقر الخلافة الجديد الحجاز أو مصر . . ولكن ضاعت هذه الجهود عبثاً . .[1] .

« ومنذ ذلك أسفر مصطفى كمال عن وجهه الحقيقي ، وشرع يوجه الدولة الجديدة شطر العلمانية التي يؤمن بها » ؟

« ولقد استهل مصطفى كمال عهده بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، وبالغاء وزارة الأوقاف الإسلامية ونظام الوقف والمحاكم الشرعية وقوانينها ، ثم عمد إلى رفع الحجاب ، وإلغاء تعدد الزوجات ، وأمر بإلغاء الطرق الصوفية والتكايا ومصادرة أموالها ، وبإخلاء جامع أيا صوفيا وإعداده في مصاف الآثار القديمة .

ثم والى أعماله التجديدية (؟) فمنع الطربوش ، ودعا إلى استبداله بالقبعة (١٩٢٥) وعدل الدستور لكي يحذف منه العبارة التي تنص أن الإسلام دين الدولة (١٩٢٨) وألغى تدريس العلوم الدينية (١٩٢٩) ورفع من برنامج جامعة استانبول القسم الديني (١٩٣٣) وحظر على رجال الدين الاستمرار على التزيّ بلباسهم القديم (١٩٣٤) الخ . .

(هذا فضلاً عن إعلانه المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث ، بالإضافة إلى تبديله الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وحمله الشعب على تغيير أسمائهم وكناهم بأسماء وكنى ترجع الى الطورانية ، وذلك أسوة به ، إذ

(١) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ .

أسمى نفسه أتاتورك عوضاً عن مصطفى كمال .

يعلق المؤرخ أرنولد توينبي (على أحداث تركيا الكمالية بقوله :[1]

توينبي معلقاً على إلغاء الخلافة : كُنِّست الشريعة الإسلامية من تركيا :

« ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم (وهو شيء سهل نسبياً في مجال الإصلاح الدستوري) . بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي - الخليفة - وألغت منصبه - أي الخلافة ، وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التي تمنع لابسيها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية ، خاصة السجود ، كنَّسَت(*) الشرعية الإسلامية بأكملها وتبنت القانون المدني السويسري بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالي ، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما في المجلس الوطني ، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية وهذا أمر لا يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبي العثماني القديم .

« وأهم وأشجع تغيير قام به اولئك الثوريون في تركيا هو ما قدموه للشعب من قيم ومثل اجتماعية جديدة » .

.. واعترفت الدول باستقلال تركيا ، وانسحب الانجليز من استانبول والمضايق ، وغادر هارنجتون - قائد قوات الحلفاء والصديق الحميم (؟) لمصطفى كمال - تركيا ، وعلى أثر ذلك احتج أحد النواب الانكليز على كرزون - وزير خارجية الانجليز - في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا فأجابه كرزون قائلاً[2] :

(١) الإسلام والغرب تعريب الدكتور نبيل صبحي ص ٥٠ الصادر سنة ٩٦٩ .
(*) هذا هو تعبير المستشرق !! .
(٢) كيف هدمت الخلافة ١٩٠ .

القضية أن تركيا قد قضي عليها ولن تقوم لها قائمة لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها . الخلافة والإسلام[1] .

« جاء في وثائق وزارة الخارجية البريطانية التي تنشرها عادة - بعد مضي نصف قرن من الزمان عليها - أن مصطفى كمال أتاتورك استدعى - وهو على فراش الموت - السفير البريطاني في أنقرة ليعرض عليه أن يتولى الحكم من بعده في تركيا ، وقد طلب السفير مشورة حكومته التي رفضت العرض حتى لا تكشف اللعبة !!! »[2] .

وقد يكون في الخبر تعمية .. وقد يكون المقصود توليه الحكم بعد أن يشهر إسلامه . . . وفي أسوأ الأحوال أخذ السفير موافقة بريطانيا على خلف أتاتورك . . . وفي ذلك ما فيه !!

* * *

وهكذا انتصر الغرب على الشرق ، وزالت الخلافة الاسمية (؟) من الوجود بعد أن دالت دولة الإسلام عبر الزمن والقرون . . .

فهل من بعث جديد ؟
« وتلك الأيام نداولها بين الناس » .
« وليس ذلك على الله بعزيز » .

(١) خاب ظنهم فقد عاد الإسلام يزحف من جديد إلى قلوب الأتراك ومؤسساتهم ؟؟ انظر كتاب المجابهة من هذه السلسلة .
(٢) الأخبار الطالبية الصادرة عن الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطالبية/ ٢١/ ١٠/ ١٩٧٨ .

الفصل السادس

وبعد . . .
لابد من اعادة كتابة
التاريخ الاسلامي

اعادة كتابة التاريخ الاسلامي من جديد

اعادة كتابة التاريخ الاسلامي أو اعادة ترتيب أوراقه مسألة بالغة الأهمية باتت تفرض نفسها بقوة على الباحثين والعاملين . . . وتحتل الصدارة في قضايا الحضارة الاسلامية . . . ذلك أن تفتح الوعي العقيدي الصحيح في أجيال ما بعد زوال الخلافة العثمانية وفرض الانتداب وتقسيم العالم الاسلامي إلى مناطق نفوذ للدول الكبرى ثم ضياع فلسطين خلال حروب متعاقبة مع العدو الصهيوني . . . ومحاولات الانبعاث الاسلامية تلك التي تحاول دعم وتقويم الشخصية الاستقلالية الحضارية للأمة ولأفرادها . . . وادراك « تلك الأجيال » ان ما حاول الاستعمار فرضه على أذهانهم وأفكارهم من (قصور حضارتهم) وما تمثله من قيم وأفكار وثقافة وتطلعات عن الوصول إلى مقياس الحضارة الأعلى ان هو إلا وهم ودس رخيص . . . كل هذا وذاك أدى ويؤدي إلى مزيد من (وعي الذات) والى محاولات مستمرة لقراءة واعية للتاريخ الاسلامي في مراحله الشتى ، باعتبار التاريخ مرآة تعكس ممارسات الأمة ومدى مطابقة تلك الممارسات أو مجانبتها للمفاهيم التي انطلقت منها . . . لرسم معالم وجودها المتميز .

من الأسباب الداعية إلى اعادة كتابة التاريخ :

وفي اعتقادي أن ادراك مجموعة من المفكرين ومن المؤسسات وجوب اعادة ترتيب أوراق التاريخ الاسلامي يعود إلى جملة أسباب منها :

١ - إن تأريخ العهود الاسلامية المتعاقبة قد كتب دون منهج واضح وكثيراً

ما كان المنظور الشخصي أو منظور الحكم نفسه يتداخل مع عملية التاريخ . . . حتى أن حقيقة الأحداث تكاد تختفي في ثنايا كتب متعددة .

٢ - إن تحريفاً « مقصوداً » طبع مجموعة من كتب التاريخ من أجل تقليب وجهة نظر مذهبية أو في سبيل ادراك مبتغى « حزبي » إن صح التعبير . وبمعنى أوضح ان المنهج العلمي المتين الذي شاد عليه علماء الحديث النبوي صحاح الحديث حيث باتت الأمة مطمئنة إلى صحة الحديث متناً ورواية فضلاً عن اكتشاف ألوف الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة . . . يرفضها الاسلام ويأباها . . . إن هذا المنهج العلمي قد غاب بشكل يكاد يكون كاملاً عن كتابة التاريخ الاسلامي . . فتؤخذ الرواية على هناتها دونما تمحيص أو تدقيق أو مقابلة أو مقارنة .

٣ - إن أوراقاً في التاريخ بالغة الأهمية قد بعثرت عن عمد أو طمست معالمها . . . أو تداخلها التشويه والتحريف . . . وبات من الواجب تجميع تلك الأوراق أو نفض الغبار عنها أو ابعاد صور المسخ والتشويه فيها . . .

٤ - إن أرباب المكر والتآمر من يهودية وصليبية وتبشير واستعمار قد شوهوا عن عمد حقباً هامة في تاريخ الأمة وتفننوا في التزوير والتحريف خاصة وان كثيراً من المستشرقين ، لأغراض سياسية مرتبطة بمطامع استعمارية ، عكفوا على كتابة التاريخ الاسلامي من وجهة نظرهم . . . وفي سبيل تحقيق أهدافاً متعددة . . .

٥ - إن كثيراً من الوثائق والمخطوطات التاريخية الهامة لا تزال تقبع في أدراج المكتبات العالمية كما أن كثيراً من وثائق الامبراطورية العثمانية ووزارات الخارجية في كثيرمن الدول التي كانت معنية بشؤون هذه المنطقة لم تنشر بعد أو ان بعضها نشر في لغات غير العربية ولم تعرب بعد . . .

٦ - إن نهضة مؤسسة واضحة المعالم آخذة في النمو والتصاعد في جيل القرن الخامس عشر الهجري أو النصف الثاني من القرن العشرين تحاول أن

تستقرىء التاريخ وتعيد ترتيب أوراقه لازالة كل تحريف أو دس في تاريخنا الطويل . . . واظهار ذلك التاريخ على حقيقته ووفق مفاهيمه هو لا مفاهيم التاريخ العربي . . .

غير أن السؤال الكبير الذي يطرح نفسه أي منهج سيعتمد في كتابة هذا التاريخ ؟ وما هي الخلفية التي يمكن أن ننطلق منها في اعادة الكتابة ؟ ثم كيف يمكن أن (نحاكم) الوثائق التاريخية .

بديهيات أولى لاعادة الكتابة:

ولا بد بادىء ذي بدء من تقرير بديهيات **أولاها** ان هذا العمل الجبار الفذ يستحيل على فرد باحث أو أفراد باحثين القيام به منفردين . . **ثانيها** ان هذا العمل الخطير فرض عين على جميع الباحثين الفارين إلى أن تنفر منهم فرقة يقومون بهذا العبء الجبار فيغدو الفرض العيني هذا فرضاً كفائياً . . . لا يعفي القادر على المراقبة والتصحيح . . .

ثالثها إن واجب المؤسسات الكبرى ، حكومات أو جامعات ، ان تنقل كافة الوثائق والمخطوطات من المكتبات العالمية ومن محفوظات وزارات الخارجية في انكلترا والمانيا وروسيا وأميركا وعلى الأخص في تركيا حيث وثائق الامبراطورية العثمانية ، إلى عالم التحقيق والتعريب . . . حتى تكون عوناً للباحثين .

رابعها ان تنبثق هيئة عليا لاعادة كتابة التاريخ عن احدى المنظمات الاسلامية العالمية وان يكون اختيار أولئك الباحثين من النوعية الممتازة بحيث تنطبق عليها مواصفات عديدة علمية وخلقية ودينية .

غير أن تلك البديهيات لا تعطل العمل الفردي أو المؤسسي المحدود . . وقد يكون هذا بداية الطريق إلى العمل الرسمي الواسع أو قد يكون هذا ضرورياً في عملية تقرير الأسس التي ينبغي أن تنطلق منها قراءة التاريخ الجديدة . . .

أطر عامة في كتابة التاريخ من جديد:

ولا يمكنني في مقال أن أحاول الاجابة على الأسئلة أعلاه أي عن المنهج الواجب اعتماده في كتابة التاريخ من جديد ولا عن الخلفية التي يمكن اعتمادها

في محاكمة الوثائق . . . وبحسبي في هذه العجالة أن أحاول رسم الأطر العامة لهذا البحث الخطير .

المنهج العلمي الحديث :

١ - في ظني أن المنهج العلمي الذي اختاره علماء الحديث ينبغي أن يكون أحد أهم المرتكزات في تمحيص الوقائع التاريخية فان كان قد وجد من تجرأ على رسول الله بوضع أقوال لم يقلها أو ممارسة أفعال لم يعملها فالأولى أن يتبارى المفترون في التزوير والتحريف للوقائع التاريخية . .

تجاوز التاريخ الوقائعي إلى ربط التاريخ بمفهوم شامل للاسلام:

٢ - ان ننطلق في الكتابة من مفهوم اسلامي شامل . . . فلا يجوز أن نؤرخ لأمة الاسلام تأريخاً وقائعياً فحسب بل لا بد من ربط التأريخ بالاسلام نفسه باعتبار أن الوقائع تلك هي محاولات وممارسات للاسلام صحيحة أو خاطئة أو هي صورة صادقة أو كاذبة لحضارته فلا يجوز أن ننسب إليه - أي إلى الاسلام - أو إلى حضارته ما لا يقبله ويعني هذا أنه لا يجوز لنا أن نصور ما يرفضه الاسلام ويأباه ممارسة اسلامية . . . ويعني هذا أيضاً بشكل أوضح أن نقرأ التاريخ قراءة اسلامية بأن نكتب الظواهر الصحيحة فيه بالاستقلال عن الظواهر المزيفة وان ندرس الممارسات الاسلامية بمعزل عن الأخرى (الانحرافية) غير أن ما يشترط لنجاح هذا عدم التشنج الفكري فنحن هنا نقرأ التاريخ ولا نصنعه وشتان ما بين الاثنين . . فمثلاً عندما نقرر أن نظام الاسلام في حكمه شورى لا وراثي . . فينبغي أن نكتب التاريخ بناء على هذه القاعدة . . . فتظهر الشورية التي مارسها الحكام المسلمون على امتداد الساحة الاسلامية عبر الزمن - وليس في العهد الراشدي فقط - وتظهر أعمال هؤلاء وخدماتهم الرائعة التي أغنوا بها ظواهر الحضارة الاسلامية ثم ندرس ظاهرة الانحراف في الحكم الشوري مع اعتبارنا الوراثة في الحكم انحرافاً - غير أن هذا لا يدفعنا إلى اسقاط (الاسلامية) عن تلك العهود وننفض أيدينا منها (وهو اتجاه خطر في الفكر الاسلامي) . . . إذ أن هذا يؤدي إلى مسخ التاريخ لا إلى اعادة كتابته فمعاوية وان انحرف

بالحكم إلى الملك العضوض وأدخل في الاسلام بدعة خطيرة تطورت إلى أن أصبحت تقليداً في الحكم إلا أن معاوية هذا ومن بعده العديد من الخلفاء والحكام قد قاموا بجهود جبارة في خدمة الاسلام وفي الجهاد فيه . . . كما أن معاوية نفسه الذي انحرف عن الشورى في صورة من صورها كان يمارسها فيما عدا ذلك كما كان مجاهداً عمل على نشر الاسلام . . . وان كان قد خاض غمار حروب داخلية تعتبر جزءاً من انحرافه .

وهكذا فإن الوقائع الصادرة عن (الانحراف) تدرس في خانة الانحراف كما تدرس وقائع الصحة في خانتها . . . فمعاوية خليفة منذ استشهاد عليّ . . وعبد الله بن الزبير خليفة لا مروان بن الحكم ، ولا تبدأ خلافة عبد الملك إلا من يوم موت ابن الزبير . . . .

دراسة ظواهر الانحراف :

٣ - وكما ندرس الظواهر الحضارية المتعددة الأشكال وحركة الجهاد الكبرى التي شقت طريقها في العالم لتحرير المستضعفين واخراج الناس من العبودية لغير الله إلى عبودية الله ومن الظلم إلى العدل . . . لا بد أن ندرس التيارات الشعوبية وظواهر الانحراف المتعددة التي عملت في الجسم الاسلامي بدأً باليهودية ومروراً بالقرامطة والمذاهب المنحرفة وانتهاءً بالصليبية والاستشراق والاستعمار أي لا بد من درس هذه الحركات على أنها انحراف . . . أثرت وتؤثر في الحياة الاسلامية .

انحسار العربية :

٤ - ولا بد من دراسة تأثير الشعوب غير العربية التي حكمت باسم الاسلام دون أن تعرّب لسانها وتستقيم عليه أن انحسار (العربية) أدى إلى مزيد من الانحراف في حركة التاريخ الاسلامية .

الحركات الجهادية للمدن ضد الزحف الصليبي :

٥ - ولا بد لدى دراستنا للحملات الصليبية من دراسة لحركات الجهاد المتعددة التي قامت في المدن الاسلامية المختلفة سوى حركات عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي إذ أن كل مدينة محتلة بذلت جهوداً جبارة ساعدت في التحرير العام .

انصاف العهد العثماني :

٦ - ولا بد أيضاً من دراسة منصفة للعهد العثماني وان ننفض كثيراً من الغبار ونبتعد عن كثير من الدسائس التي حبكها بعناية أعداء الأمة والاسلام . . . ومن خلال (النصفة) لتلك العهود تظهر المحاسن والانحراف اللذين رافقا وسايرا كثيراً من السلاطين (والصدور العظام) .

ولا بد هنا من الاشارة إلى وجوب استقراء النظام القضائي والاداري المعمول في السلطنة والذي يقضي في أحد وجوهه إلى أهمية لم تدركها الأمم إلا حديثاً وهي حصانة وسيادة القضاء على الولاة الاداريين فالسلطان عندما يصدر مرسومه بتعيين الوالي كان يوجه مرسومه إلى قاض الولاية يعلمه فيه بهذا التعيين ويطلب إليه اعلام الناس بهذا ومطالبتهم بالطاعة . . . وهو تطور عال للسلطة القضائية كما ترى . . .

ظروف الوقائع والأحداث :

٧ - ومن خلال التمحيص التاريخي لا بد من إيراد الوقائع ضمن الظروف الصعبة التي كان يتعامل بها الولاة والحكام في تلك الحقب إذ لا يجوز أن نحاكم أعمالهم من منظور فكري دون التعامل مع الأحداث وفق ظروفها التي نتجت عنها أو رافقتها . . .

اللعبة الدولة المسألة الشرقية عدم نجدة الأندلس الذبيح والقوقاز والجزائر . . .

٨ - وهذا مما لا شك فيه سيدفعنا إلى دراسة الظروف الدولية واللعبة السياسية العالمية . . . حيث كان المسلمون فيها الفرسان الأول . . . فإذا بهم في القرون المتأخرة وبعد فتح القسطنطينية بقرنين على الأكثر يفقدون الدور الرئيسي لتتداخل معهم صراع الدول الأوروبية فيما بينهم ثم صراع هؤلاء مع السلطنة وأطماعهم في القضاء على ما أسموه الرجل المريض . . . أو الانتهاء من المسألة الشرقية التي هي القضاء على الخلافة الاسلامية في استنبول وتوزيع ممتلكاتها على الدول الكبرى . . . أي لا بد من دراسة لعبة الأمم ومدى انعكاساتها على العالم الاسلامي وتأثيرها في الأحداث المحلية التي شهدتها المناطق المختلفة . . . والتي أدت في النهاية إلى القضاء على الخلافة واستعمار أكثر مناطق العالم الاسلامي

المترامي الأطراف فكما احتلت الجزائر وتونس ثم مصر والسودان كان هناك نوع آخر من الاحتلال في آسيا الوسطى من قبل روسيا . . . وكما كان هناك بطولات في الحركة الجهادية الجزائرية والمصرية والسنوسية كان كذلك في القوقاز حركة جهادية رائعة . . . في الوقت الذي كانت الاستانة ترقب تلك الحركات بألم دون أن تتمكن من مد يد العون . . . تلك اللعبة الدولية تستتبع في أساسها دراسة الأسباب التي لم (يتحرك العثمانيون) لنجدة الأندلس الذبيح في أقصى الغرب بينما كانوا يتحركون على صعد أخرى في وسط وشرقي أوروبا . . . ممدين دولتهم إلى أطراف لم تقبلهم بينما تخلوا عن أطراف كانت تنسجم معهم في الدين والحضارة .

الحركات . . والامتيازات وتأثير الأجنبي والتعددية الحضارية :

٩ - وفي أثناء دراسة الحركات الجديدة التي قامت ضد السلطنة سواء منها الحركات الاصلاحية كالوهابية أو التي تدخل في حيز الأطماع كحركة محمد علي باشا في سوريا ولبنان وحركة الشريف حسين في الحرب الأولى أو الأحداث المحلية في جبل لبنان وقبرص وتكريت وأرمينيا والأكراد تلك التي نتجت بتأثيرات دينية بدعم أو تأثير خارجي . . . ومدى امكان تجانس الشعوب أو تنافرها في ظلال الوحدة الاسلامية وتأثير (الاعتراف) بتعددية حضارية في ظلال الحكم الاسلامي ودراسة عميقة لمسألة الامتيازات الأجنبية التي منحها سلطان بني عثمان لقناصل الدول الأجنبية ثم تمادت لتكون السند الشرعي لتدخل مكشوف في البلاد الاسلامية ويستتبع هذا دراسة مسألة القوميات بعناية أكبر . . .

التقسيم الغربي لعصور التاريخ يتناقض مع التقسيم الاسلامي :

١٠ - ومن جهة أخرى لا بد من اعتماد تقسيم لحياة الدولة الاسلامية عبر العصور مختلف عن التقسيم الأوروبي فلديهم في المنظور الأوروبي عصور قديمة وعصور القرون الوسطى والعصر الحديث الذي يبتدىء بسقوط القسطنطينية غير أن هذا التقسيم الذي نقله المؤرخون المحدثون وعممه على تاريخنا . . لا ينسجم بقليل أو كثير مع تاريخنا فان كانت

القرون الوسطى في أوروبا غاية في الظلم والتخلف فهي عندنا في حدود مقبولة الاشراق المادي والمدني . . . بينما قرون التخلف والجهالة كانت في القرنين الماضيين على الأكثر . . . أي منذ اشتداد تدخل أوروبا في شؤوننا بعد أن دب الضعف المشين إلى الجسم العثماني .

ـظرة الاسلامية ـى الأمم قديماً وحديثاً:

١١ - وكما ترفض سياسة توزع القرون الأوروبية كذلك ينبغي أن يكون الموقف في نظرتنا إلى الأمم فالأمم في المفهوم الاسلامي احدى اثنين أمة مسلمة وأخرى غير اسلامية والأمة المسلمة تضرب بجذورها إلى الماضي البعيد حيث الأنبياء فكلها حلقات في سلسلة التاريخ الاسلامي كانت أكبرها الدولة الاسلامية التي بدأت مع النبي ﷺ . . . ومن هنا كان لا بد أن ندرس بعناية الأمم التي ذكرها القرآن فعاد وثمود وسبأ . . . ثم موسى وأقوامه ثم عيسى ويهودية وشعوب تلك المنطقة . . . تلك وسواها مما ينبغي دراسته دراسة وافية حتى يرتبط التاريخ مع مقتضيات وطروحات الفهم الاسلامي . . .

وكذلك الأمم غير الاسلامية فلا بد من دراستهم على أنهم غير مسلمين فتظهر من خلال تلك الدراسة التناقضات والمواقف التي أدت بهم إلى انبعاث جديد بعد تأثرهم - بحدود معينة في الظواهر المادية لمدنية الاسلام وحضارته . . -

إبعاد المصطلحات الغربية عند كتابة التاريخ :

١٢ - وعندما نكتب التاريخ من جديد لا يجوز أن نقوله (بضم النون وكسر الواو) ما لا يقول . . . فلا يجوز أن ندخل مفاهيم عصرية طرحتها الحضارة الغربية أو المفاهيم الاشتراكية فتفسر الأحداث والوقائع الماضية على ضوئها أو بناء لمعطياتها فتقول مثلاً بحركات قومية أو اشتراكية أو منافسات حزبية لم تكن أصلاً موجودة في حقب التاريخ الاسلامية وإنما كانت انحرافات في الفهم الاسلامي الصحيح .

تلك هي خطوط أولى أو مقدمات لوضع أساس منهجي يضبط حركة إعادة

التاريخ الاسلامي . . . وأظن أن في ثناياها اشارات لا بد من تفصيلها كما أن فيها ما يثير الجدل . . . ولا يمكنني كما نوهت أصلاً - من حسم المسألة من طرف واحد . . . فلا بد لموضوع خطير كهذا من محاورات وندوات كما لا بد من مؤسسة اسلامية عالمية يكون بامكانها وضع الأصول العامة شريطة أن لا تتبع هوىً شخصٍ أو اتجاهات حكومة الحكومات . . .

وفي اعتقادي أن اعادة كتابة التاريخ الاسلامي وقراءته من جديد احدى الضرورات التي تمليها الدراسة الجدية لاعادة الحكم الاسلامي . . . إذ لا يمكن لأمة من الأمم (وخاصة أمة الاسلام) أن تستعيد (ذاتها) فتنطلق حضارتها في عملية الاشعاع إلا إذا فهمت ماضيها وقرأته قراءة واعية بصيرة مدركة لأسباب النهضة ومسارها وعوامل الضعف وطريقها ومستبصرة كيفية تسرب الوهن والضمور والتخاذل إلى الجسم السليم المعافى ومتفحصة لمؤامرات الأحقاد والأطماع الدولية في صراعها الضعيف ضد الاسلام .

إن رفض القراءة البصيرة الواعية للتاريخ قد يوقع الأمة من جديد في تجارب خطيرة مدمرة وقد يقضي على أمل الانبعاث وعودة الحضارة الاسلامية إلى العطاء من جديد . . .

لذلك أضحت اعادة كتابة التاريخ الاسلامي فرض محتوم لا مفر ولا مهرب منه إلا إليه . . .

الفهرس العام

لكتاب المفهوم والتجربة

مقدمة سلسلة ص
بين يدي الطريق ص
الفصل الأول : غاية الوجود الانساني

الفصل الثاني : النظام والحضارة

الفصل الثالث : مفهوم الدولة في الاسلام

الفصل الرابع : كيف أقام الاسلام دولته

الفصل الخامس : كيف دالت دولة الاسلام

الفصل السادس : (اعادة كتابة التاريخ الاسلامي)

كتب للمؤلف

١ ـ تفسير جزء عم : معانٍ وموضوعات
٢ ـ سجّل التمارين القرآنية (خاص بجزء عمّ)
٣ ـ الطريق إلى حكم اسلامي (الطبعة الأولى)
سلسلة الطريق إلى حكم اسلامي (تحت الطبع)
٤ ـ الزواج الإسلامي أمام التحديات
٥ ـ المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا « طبعة ثانية »
٦ ـ مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية « طبعة ثانية »
٧ ـ تحت الاسوار (مسرحية)
٨ ـ سلسلة القصص النبوي : « طبعة ثانية »
أ ـ نار وإيمان
ب ـ غار الاخلاص « طبعة ثانية »
جـ ـ « الف » لا تضيع . . . (تحت الطبع) .
٩ ـ سلسلة مجالس التفسير . خمس حلقات (تحت الطبع)
١٠ ـ قصة الحرب في لبنان مخطوط
١١ ـ الحركة الاسلامية في حرب لبنان
١٢ ـ سلسلة قصصية للأطفال آيات الله في خلقه . مخطوط .
١٣ ـ عمر بن عبد العزيز في السياسة والحكم والاقتصاد « طبعة ثانية »